صقر أبو فخر

الماسونية في عماء التاريخ

خرافات وأغاليط وحقائق



الماسونية في عماء التاريخ

صقر أبو فخر

الماسونية في عماء التاريخ

خرافات وأغاليط وحقائق



Freemasonry in the Vanities of History:

Myths, Fallacies and Facts

By: Saker Abu-Fakhr

First Published in January 2021

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-732-1

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠٢١

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن



المحتويات

مَن أراد الراحة فليعتقد
ومَن أراد الحقيقة فليسأل

فريدريك نيتشه

تقديم

شُغفنا، منذ بداية قراءاتنا، بالروايات الغامضة، وبالقصص التي تتفكك أسرارها كلما أوغلنا بين صفحاتها. وكانت الروايات البوليسية هي أكثر ما يثير أخيلتنا أمثال مؤلفات أغاثا كريستي ولاسيما روايتيها «جريمة في قطار الشرق السريع» (١٩٣٤) و«موت على النيل» (١٩٣٧)، ومثل سلسلة موريس لبلان عن «اللص الظريف» أو أرسين لوبين. وقد انتقل الشغف بعالم الأسرار والخفايا إلى التاريخ العربي؛ وكان ذلك الغرام دافعًا إلى دراسة الجماعات السرية الإسلامية، أو ديانات الأسرار التي يمكن أن نعثر على جذورها في عقائد الخصب المقدسة في العراق والشام ومصر. والتاريخ العربي عَرفَ، في مراحل عدة، جماعات شتّى من هذا الطراز أمثال القرامطة وأخوان الصفا والإسماعيلية والعلوية والدرزية والبهائية والأحمدية والإيزيدية، فضلًا عن الصابئة والصارلية والشبك وغيرها. وعلى هذا المنوال كان لا بد من الالتفات علميًا إلى جمعية الصليب الوردي مثلًا، وإلى منظمة فرسان الهيكل والماسونية

وخلافها. وقد استهواني اكتشاف أسرار تلك الجماعات لأنها، بالدرجة الأولى، سرية، ويكتنفها الغموض أيما اكتناف. لكنني تنبهت إلى أن معظم تلك الحركات ليس سريًا تمامًا، مع أن لديه أسرارًا كثيرة منثورة. فالماسونية، على سبيل المثال، علنية في معظم بلاد العالم، ورجالها معروفون، وكذلك اجتماعاتها التي تُعقد تحت أنظار أجهزة الأمن، حتى أن محاضر الاجتماعات تُقدم أحيانًا إلى الجهات المختصة في ما عدا، بالطبع، الدول التي تحظر الماسونية[1]. والسّرية لدى الماسون هي من ميراث العصور الوسطى حين كان الخوف من الاتهام بالتجديف قويًا، كما حدث لغاليليو وكوبرنيكوس، ولاحقًا لأنطوني كولينز وتوماس وولستون. والسّرية شأن طبيعي في البلدان التسلطية أو الاستبدادية أو غير الديمقراطية، وهو ما تنتهجه معظم الأحزاب والجمعيات السياسية وشبه السياسية. ومع ذلك، ثمة خرافات وأوهام لا حصر لها عن الماسونية وتاريخها ورجالها وصنائعها. فثمة من ادعى، أمثال سعيد الجزائري، أن أصل الماسونية هو «جمعية القوة الخفية» التي صلبت المسيح ودسّت السم للنبي محمد واخترعت عبدالله بن سبأ وكعب الأخبار، وهو كلام مبتذل ردد بعضًا منه عوض الخوري في كتابه «**أصل الماسونية**». وفي هذا الكتاب يستفيض عوض الخوري في الكلام على عبقريته لاكتشافه السر المخفي عن العالم بأسره بمن فيهم عموم الماسون، وهو وجود «جمعية القوة الخفية» التي أسسها حيرام آبي من سبط يهوذا، ومعه الملك هيرودوس أغريبا في ٢٤/ ٦/ ٤٣ ميلادية (لاحظوا الدقة في تاريخ التأسيس، أي باليوم والشهر والسنة، وهي دقة زائفة)، ثم جرى تجديد ذلك التأسيس في سنة ١٧١٧ لتُسمى جمعية الفريماسون. وعلى هذا الغرار

١- راجع: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩، الجزء الخامس، ص٤٥٨-٤٦٨.

مارست كتب كثيرة في هذا الميدان تضليلًا علميًا وتاريخيًا على عقول العرب مثل بعض آراء حسين عمر حمادة في كتابيه **«شهادات ماسونية»** (دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣)، و**«الأدبيات الماسونية»** (دمشق: دار الوثائق، ١٩٩٥)، وكذلك نعمان السامرائي في كتابه **«الماسونية واليهود والتوراة»** (لندن: دار الحكمة، ١٩٩٤)، والشيخ محمد علي الزعبي في كتابه الهزيل **«الماسونية في العراء»** (بيروت: مطابع معتوق، ١٩٧٢). ومن الكتب المتهافتة **«تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة»** لمحمد عبد الله عنان (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٤)، و**«الصهيونية والماسونية»** لعبد الرحمن سامي عصمت (الإسكندرية: مطبعة رمسيس، ١٩٥٠)، و**«الجمعية الماسونية: حقائقها وخفاياها»** لأحمد غلوش (القاهرة: الدار القومية، لا تاريخ). و**«الماسونية ذلك العالم المجهول»** لصابر طعيمة (بيروت: دار الجيل)، و**«نظرة جديدة في الماسونية وشهود يهوه»** لتوما البغدادي (مكتبة السائح)، و**«الماسونية والصهيونية العالمية»** لمحمد علي الحسيني (بيروت: دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٣)، وفي هذا الكتاب الأخير يختلط الجهل بالغباء المعرفي بطريقة عجيبة غريبة. وعلاوة على هذه الكتب نعثر على **«الماسونية واليهود والتوراة»** لنعمان عبد الرزاق السامرائي (لندن: دار الحكمة، ١٩٩٤)، و**«تبديد الظلام أو أصل الماسونية»** لعوض الخوري (د.م.، د. ن.، ١٩٩١)، و**«الماسونية والبهائية»** لموفق العمري (بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٦)، و**«الماسونية ذلك المجهول»** لعبد الحليم إلياس الخوري (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٤). وفي جميع هذه الكتب ونظائرها الكثيرة لا حقائق تُعرض ولا خفايا تُكشف، وإنما مجرد ثرثرة ونثر اعتباطي لأرباع الحقائق، أو لبعض الأكاذيب الصحيحة True lies وخرافات سارية وخيال كسيح. وعلى سبيل المثال، فإن حسين عمر حمادة يؤكد «أن تحديد النسل من عوامل

التقويض الماسوني للمجتمعات الإسلامية»[٢]، ثم يتهم أوغست كانط (وكان يجب أن يكتبه كونت) بأنه «أحد منظري الأجهزة الأجنبية»[٣]. أما ما هي تلك الأجهزة الأجنبية، وأين تعمل، وما تسعى إليه، وهل هي أجهزة استخبارات أم أجهزة دعاية أم أجهزة استعمار، فالعلم مرصود لعبقريته الفذة التي أتاحت له أن يفضح أسرار كانط (كونت) ويميط عنها الأستار، وحده من دون الخلق أجمعين. والأسرار التي يفضحها السيد حمادة هي التالية: «إن الفكرة القومية كانت من القوى الفعالة التي استخدمتها القوى الخفية للسيطرة على المنظومة الفكرية للماسونية (...)، إلى جانب أفكار عبادة العقل والتفكير الديمقراطي والحقوق الطبيعية وحق تقرير المصير القومي»[٤].

ومن مخلوقات الماسونية، علاوة على أوغست كونت، الرمزية والسريالية والتكعيبية والدادائية، وإن ما جعل «الثورة الشعرية» ممكنة فهو الماسونية[٥]. والبيان السريالي - بحسب اكتشافاته - الذي أُعلن في ٢٧/ ١/ ١٩٢٥ يذكّره ببروتوكولات حكماء صهيون[٦] الذي هو أداة معلنة من أدوات الماسونية المتهودة[٧]، وأن البرنامج التخريبي المبرمج للأدبيات الماسونية المتهودة لا ينفك يُشغلنا بقضايا القلق والاكتئاب النفسي[٨]. ومع أن مئات الكتب صدرت

٢- راجع كتابه «**الأدبيات الماسونية**»، ص٢٩٠.

٣- المصدر السابق، ص ١٥٩.

٤- **الأدبيات الماسونية**، مصدر سابق، ص٣١٦.

٥- المصدر السابق، ص١٥٠-١٥٢.

٦- المصدر السابق، ص١٥٣.

٧- المصدر السابق، ص١٥٢.

٨- المصدر السابق، ص١٥٦.

لتضع الماسونية في سياقها التاريخي والعقيدي، إلا أن الجهل بها ما برح ساريًا، تمامًا مثل الكلام على كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون»، وهو كتاب زائف، ومثل الكلام على خرافة «فطير صهيون»، حتى صرنا مثل الذي يعطس في سوق النحاسين، فلا أحد يسمعه ليقول له: يرحمكم الله. وقد تمادى كثيرون في إشاعة الجهل، وزعموا أن جمعية الصليب الوردي وأندية الليونز والروتاري هي من الواجهات العلنية للماسونية التي تُخفي ضروبًا من العمل السري، الأمر الذي دفع الدكتور عبد الوهاب المسيري إلى القول: «أتحدى أي شخص أن يُثبت أي علاقة بين الروتاري والليونز والماسونية. فلا علاقة إطلاقًا بين هذه الأندية والماسونية»[٩].

وواضح أن منظري الجماعات الإسلامية كلها، بقطعانها الناعمة أو بذوات الأنياب، ما برحوا يتقولون على الماسونية بما ليس فيها، وهذا إما جهل أو تضليل، والسبب هو أن الماسونية، مع أنها شبه ميتة اليوم، ولا يكاد يكون لها أي فاعلية في العالم العربي، علمانية. والعَلمانية عند هؤلاء هي المروق من الدين على غرار ما افتروا به على الكاتب المصري فرج فودة فقتلوه في سنة ١٩٩٢. والمعروف أن جمعية الصليب الوردي القديمة التي ظهرت في سنة ١٤٠٧ قاومت الماسونية مثل رصفائها الجزويت (اليسوعيون) وفرسان الهيكل[١٠]،

٩- انظر: جريدة «الرأي العام» الكويتية - مقابلة، ١٠/ ٥/ ٢٠٠٤.

١٠- ظهرت هذه الجماعة في سنة ١٠٧٠ ميلادية كهيئة خيرية غايتها رعاية الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة. وقد أسسها بعض التجار الإيطاليين، وعُرفت في البداية باسم فرسان القديس يوحنا، أو فرسان المعبد. وهؤلاء أنشأوا مستشفى القديس يوحنا بالقرب من كنيسة القيامة في القدس. وبعد سقوط القدس بأيدي المسلمين بعد معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على جيوش الفرنجة، انتقل فرسان المعبد=

وهي غير جمعية الصليب الوردي الحديثة التي ظهرت في سنة ١٦١٦، فيما ناصرتها جمعية المستنيرين (الإيلوميناتي). إن إيضاح ما استشكل في شأن الماسونية لا يعني، على الإطلاق، الدفاع عنها أو عن تاريخها أو سياساتها أو عقائدها؛ فهذا ليس شأننا البتة، بل هو دفاع عن العلم وعن الوقائع الثابتة بعدما توارت الحقائق خلف الخرافات، وهي كثيرة جدًا.

ليكن الكلام على الماسونية إذًا، وعلى أي جماعة سرية أو شبه سرية، مستندًا إلى الحقائق بعدما كُشفت الأسرار وأُزيحت الأستار منذ زمن بعيد. ثم، بعد ذلك، ليعبر كل واحد عن موقفه من هذه الجماعات أو تلك كما يشاء، وغايتنا دائمًا الحقيقة العلمية ولا شيء غيرها. أما أن يُرمى أصحاب هذه المذاهب أو العقائد بتهم كاذبة كالتكفير والزندقة والعمالة للصهيونية والاستعمار، ويُسرد تاريخهم وتُروى عقائدهم بطرائق لا تمتّ إلى الحقائق بأي صلة، ثم تُقام عليهم الحدود، فهذا افتراء ونكاية وجهالة. ومن غير الممكن التسامح مع الجهل في عصر يتيح الوصول إلى المعلومات الصحيحة بحرية وسهولة.

= (أو فرسان الهيكل) إلى ليماسول في قبرص، ثم إلى رودوس في اليونان، ثم تمكنوا من السيطرة على جزيرة مالطا. واستطاع قائدهم جان دي لافاليت أن يحصّن الجزيرة في مواجهة العثمانيين، وبنى مدينة فاليتا التي صارت عاصمة مالطا. وبعد غزو فرنسا لإيطاليا عقب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ فقد فرسان مالطا ممتلكاتهم وامتيازاتهم وتفرقوا في المدن الإيطالية، ثم طردهم نابليون بونابرت من مالطا في أثناء حملته على مصر، فأقاموا في روما وتحولوا إلى العمل الخيري.

I

كشف اللثام عن الوهم والخُبال

من علامات الجهل والهذيان مقالة عجيبة لأستاذ في جامعة بيرزيت يُدعى عبد الستار قاسم عنوانها «الماسونية تغزو فلسطين» قال فيها: «ناقوس الخطر الماسوني في فلسطين يدق منذ زمن بقوة (...)، ونفوذ الماسونيين يزداد يومًا بعد يوم، وأعداد الماسونيين في تزايد (...)، وأن هناك نشاطًا ماسونيًا في الضفة الغربية، ومحاولات استقطاب لأناس من أصحاب التأثير في المجتمع، وأن الماسونية أخطر بكثير من الصهيونية العالمية»[1]. وقد خلط الكاتب حابل الصهيونية ونابل الماسونية بخرافات متداولة هنا وهناك على طريقة الشيخ محمد علي الزعبي، ومنها أن الماسونية نشأت في بابل، وأن معنى الماسونية هو «حركة البنائين» أي «الذين يعملون على بناء هيكل سليمان»، وأن الماسونية الحديثة يقودها ويوجهها يهود. ثم ملأ مقالته بالركاكة التي لا يجوز لأستاذ جامعي أن يرددها من دون تحقيق،

١- جريدة «اللواء» اللبنانية، ١/ ٦/ ٢٠١٠.

كقوله إن الماسوني يتزوج امرأة لمدة شهرين ثم يرميها لكلاب الماسونية فتصبح عاهرة. وهذا المستوى الضحل من الافتراء يطابق ما كان يردده الإسلاميون في فلسطين والأردن عن الشيوعيين بالقول إنهم يضاجعون أخواتهم، وصارت كلمة «بلشفيك» مسبة شائنة. ثم راح ينثر كلامًا هذيانيًا عن الشعارات الوطنية التي يرفعها البعض (في إشارة إلى أعضاء حركة فتح)، وإلى المشروعات الخدمية القصدية كتعبيد الطرق التي تخفي وراءها نشاطًا ماسونيًا، ليستنتج «أن من آثار الماسون في فلسطين الهبوط في مستوى التعليم في المدارس والجامعات، وهبوط اهتمامات الشبان، وتراجع وعيهم، والتسابق على المناصب والرواتب، وتجذر العقلية الاستهلاكية». والحقيقة الجلية في هذا المقام أن الهبوط في مستوى التعليم سببه الرئيس هو المستوى العلمي لأمثال هذا المدرس الذي لم يُقِم أي وزن للحقائق والعلم والتفكير السليم. ومهما يكن الأمر، فقد بحثنا وفتشنا عن الماسونية في فلسطين، وعن ازدياد أعوانها وأعضائها ومريديها، وسألنا باحثين مشهودًا لهم بالمعرفة والكفاءة في الضفة الغربية، علاوة على مسؤولين أمنيين يسمعون حتى دبيب النملة، فكان البعض يقلب شفتيه هازئًا، والبعض الآخر يهزّ رأسه ساخرًا من هذه الكتابات المهلهلة. وها نحن بعد عشر سنوات على تلك المقالة الهذيانية، لم نلحظ غزوًا ماسونيًا لفلسطين، أو أي أثر لذلك الخطر المحدق.

الحقيقة أن الماسونية لم يكن لها أي شأن مهم في تاريخ فلسطين المعاصر جراء المصائب والويلات التي حلّت بفلسطين منذ انتقالها من السيطرة العثمانية إلى السيطرة البريطانية. وكانت مقاومة الانتداب ومواجهة الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني في رأس القضايا السياسية التي استولت على

عقول الفلسطينيين وزنودهم منذ نحو مئة سنة. ثم إن نكبة فلسطين في سنة ١٩٤٨ مثّلت بداية انحسار الماسونية في المشرق العربي عمومًا، وفي مصر وسورية ولبنان خصوصًا. ولاحقًا أُقفلت المحافل الماسونية في مصر (١٩٦٤) وكذلك في سورية (١٩٦٥)، ودخلت في سبات عميق وانشقاقات صاخبة، وصارت مدعاة للهزء كما جرى في لبنان في ثمانينيات القرن المنصرم على سبيل المثال.

أما في فلسطين، فقد أُسس أول محفل في القدس في أيار/ مايو ١٨٧٣. وعلى الرغم من أن بعض أعيانها انتمى إلى الماسونية، فقلما ظهر في صفوف ماسونييها أديب لامع أو شاعر مبدع أو مفكر ألمعي، الأمر الذي يشير إلى ضحالة وجود الماسون في الحياة السياسية والفكرية والأدبية في فلسطين. والمعروف أن المحافل الماسونية في فلسطين، قبل نكبة عام ١٩٤٨، كانت مقصورة على الأجانب حتى لو انضم إليها بعض الفلسطينيين وهم قلائل. وقد عاش هؤلاء الماسون الأجانب على هامش الحياة السياسية في فلسطين، ولم يكن لهم أي نفوذ سياسي أو مالي مميز، وما برحوا على هذا النحو حتى اليوم، هذا في ما لو بقيت لهم بعض المحافل الإسرائيلية الضعيفة. وها أنا، هنا الآن، أكتب بحثي هذا لمن أزاح عن عينيه نقاب التقليد المتراكم، وبراقع الجهالة المتمادية، ولمن نزع من رأسه خرافات الأقدمين والمحدثين، وعن رأسه تلك العمامة التركية الجاثمة فوقه كثعبان هندي، مقتديًا بقول أرسطو: «أفلاطون حبيبي ومعلمي، لكن الحقيقة أحبّ إليّ منه»، ومرددًا، في الوقت نفسه، قول المتنبي:

لكل داءٍ دواءٌ يستطبُ به — إلا الحماقة أعيتْ من يداويها



البيكار والزاوية من رموز البنائين الأحرار

II

الأصول الخرافية للماسونية

مؤسس الماسونية بحسب التقليد الخرافي الماسوني هو المهندس حيرام آبي (أو حورام) الذي قتله اليهود في سنة ٢٥٠٠ ق. م. وحيرام المهندس هذا هو غير حيرام ملك صور الذي يتردد اسمه في التوراة وفي الكتابات الدينية التي تفتقر إلى أي سند علمي.

وقد درج كثيرون على الاستعارة من كتاب «**القوة الخفية**» لعوض الخوري قوله إن الذين أسسوا الماسونية (أو القوة الخفية لليهود) هم الملك أحيرام (أو حيرام) والمهندس حيرام آبي، وإن أول محفل ماسوني كان مؤلفًا من الملك هيرودوس أغريبا (الرئيس) وحيرام آبي (نائب الرئيس) ومؤاب لافي (كاتم السر الأول) ويوحنان (كاتم السر الثاني) ويعقوب أبدون (المعاون الأول) وأنتيبا (المعاون الثاني) وسلمون أبيرون (الإشبين أو الكافل) وأدونيرام (كاتم سر إضافي) وأبيا (الحاجب). والواضح أن اختراع نَسَب للماسونية يصل إلى حيرام وإلى الملك سليمان بن داود هو

نوع من التلفيق التاريخي على طريقة أنساب العرب حين كان النسّابون يعيدون أصول زعمائهم ورؤوس قبائلهم إلى آدم، وهو ما لا قيمة تاريخية له. والعودة إلى التاريخ القديم، وبالتحديد إلى عصر الملك سليمان وهيكله المزعوم في أورشليم، هي محاولة لاختراع تاريخ لمهنة البناء التي كانت لها قيمة كبيرة آنذاك.

واليوم تبين، علميًا، أن الهيكل نفسه (في ما لو اعتبرنا ما جاء في التوراة صحيحًا وهو ليس صحيحًا في أي حال) ليس غير منزل متوسط الحجم، لا تتجاوز مقاييسه الستين ذراعًا للطول والعشرين ذراعًا للعرض والثلاثين ذراعًا للارتفاع بحسب وصف التوراة، أي أن أبعاده ٥,١٠x ٥,٣١ أمتار، بارتفاع ١٥ متراً، وهذا يساوي ٣٢٥ مترًا مربعًا فقط، أي مجرد شقة واسعة في أيامنا هذه. وقد صرف الملك سليمان في بناء تلك الشقة، بحسب خرافات التوراة، سبع سنين، وعمل فيها ٣٠ ألف رجل من لبنان (أو لبينان، وهو جبل في اليمن بحسب كمال الصليبي في كتابه **التوراة جاءت من جزيرة العرب**)، علاوة على ٨٠ ألفًا كانوا يقطعون الحجارة، و٧٠ ألفًا يحملونها، وعلى رؤوس هؤلاء كان يقف ٣٦٠٠ وكيل، أي أن مجموع من شارك في ذلك البناء نحو ١٨٤ ألفًا على مدى سبع سنوات[1]، فتخيلوا المبالغة السقيمة.

غير أن بعض الكتبة يجعل جذور الماسونية تعود إلى هرمس الهرامسة، وهو شخصية شبه أسطورية لا وجود واقعيًا لها على الأرجح، وتُنسب إليه فكرة التوحيد المصري قبل ظهور التوحيد اليهودي، وهو يسمى

١- **العهد القديم**، أخبار الأيام الثاني، ٢: ١ و١٨.

أخنوخ تارة، وإدريس تارة أخرى. وثمة من جعل أصل الماسونية يعود إلى «جمعية إيزيس» في مصر القديمة، أو إلى «الجمعية الفيثاغورية» التي أسسها فيثاغورس الذي عاش في مصر وبابل، وكان رياضيًا ومهندسًا وموسيقيًا، واشتُهر بنظرية الأعداد التي فسّر بها الوجود والنظام والانسجام الكوني، كما اشتُهرت نظريته التي برهن فيها أن مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين المجاورين.

وهناك من يعتقد أن البنائين الأحرار هم جمعية الصليب الوردي السرية التي أسسها في ألمانيا في سنة ١٤٠٧ كريستيان روزن كرويتس، وهي جماعة غنوصية، تزعم، مثل جميع الحركات الغنوصية، أنها تمتلك «الحكمة الخفية». والعجيب أن ديكارت تأثر ببعض أفكار هذه الجمعية، وكان من أبرز أعلامها فيلسوف التقنية فرنسيس بيكون، صاحب «أطلانطس الجديدة». وفي أي حال، وعلى الرغم من المشابهات العارضة بين الماسونية والفيثاغورية أو الهرمسية أو جمعية الصليب الوردي، فإن الوثائق التاريخية المتاحة لم تبرهن، بصورة حاسمة، وجود «جمعية إيزيس» أو «الجمعية الفيثاغورية»، والاثنتان، على الراجح، من أوهام الكتبة، بحسب اعتقادي.

وهناك من أعاد منشأ الماسونية إلى جماعة الأسينيين الذين تركوا لنا مخطوطات خربة قمران (مخطوطات البحر الميت) التي تعود إلى ما قبل عصر المسيح بنحو قرن، وإلى ما بعده بنحو قرن أيضًا. وعبارة الأسينيين ربما كان أصلها آراميًا مشتقًا من كلمة «أشينا» أي المتشدد في الإيمان. ومهما يكن الأمر، فإن الأسينيين هم رهبان يهود ظهروا كجماعة زهاد خارج الانقسام المتوارث بين الفريسيين والصدوقيين. وهؤلاء آثروا الاعتكاف والزهد

والعبادة، ثم صاغوا مبادئهم في العفة والزواج واللذة والأُلفة والكتمان والثروة، وفي الألوهة والنبوءات والخلاص، وطوروا عقيدة «المعلم البار» أو «معلم البر» و«أبناء النور»، الأمر الذي جعل الباحثين يرون وشيجة قوية مع المسيحية الأولى التي بشرت بالخلاص من خلال الإيمان بالمسيح (معلم البر)، ومن خلال الانتماء إلى كنيسة التلاميذ الرسل (أبناء النور) حيث النور هو المسيح نفسه: «أنا نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظلام، بل يكون له نور الحياة»[٢].

التاريخ القديم للماسونية - بحسب أدبياتها المتداولة - تاريخ خرافي؛ فهم بناة هيكل سليمان في فلسطين، ورافعو حجارة الأهرام في مصر، ومشيّدو معابد الهند ومسارح اليونان وميادين روما؛ والله، أي مهندس الكون الأعظم، خلق آدم، وعلّمه كل شيء خصوصًا الهندسة والبناء، فكان بذلك أول ماسوني في تاريخ البشر وأبو الماسون. ومن آدم انتقلت معارفه الهندسية بالتواتر حتى بلغت حيرام آبي.

حتى أن المؤرخ جرجي زيدان تجرأ على العلم فقال، نقلًا عن بعض خرافات الماسون، إن الله هو الذي أسس الماسونية في جنة عدن، وأن الجنة كانت أول محفل ماسوني، وكان ميخائيل رئيس الملائكة أول أستاذ أعظم[٣]. وقد بحثت الجمعيات السرية كلها، قبل الماسونية وبعدها، عن تاريخ قديم ومتخيل ووهمي لأفكارها، وعن أسلاف قدامى لها. وثمة تشابه شكلي بين الجمعيات السرية القديمة كديانات الأسرار السابقة للمسيحية، وبين

٢- إنجيل يوحنا - ٨:١٢.

٣- انظر: جرجي زيدان، **تاريخ الماسونية العام**، القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣.

الماسونية المعاصرة. إلا أن ذلك لا يبرهن، على الإطلاق أن الماسونية منبثقة مباشرة من تلك الجمعيات. والماسونية ليست استمرارًا للجمعيات السرية القديمة، بل نُسجت على منوالها.

إن العودة إلى الأصول المصرية أو إلى هيكل سليمان أو إلى الرياضيات الإغريقية إنما هي عودة متهافتة إلى تاريخ مهنة البناء ونظريات الهندسة القديمة. وتلك المهنة المرتبطة ببدهيات أوقليدس في النقطة والخط والسطح كانت لها قيمة كبرى في مصر في العصر المفترض لبناء الأهرام، وفي الشرق الأدنى القديم، أي سورية والعراق، وبالتحديد في الحضارتين السومرية-البابلية والآرامية. والتجول بين الكهانة المصرية والديانات القديمة وتواريخ اليهود الخرافية فيه خلط كبير.

والعجيب أن الماسونية التي ترفع لواء العلم والعقلانية ما برحت تمارس طقوسًا خرافية مضحكة كطقوس تكريس الأعضاء الجدد، واحتفالات ترفيعهم إلى درجة أعلى. وبعض طقوس الماسونية يشبه طقوسًا قديمة كانت معروفة منذ أكثر من ألفي سنة، خصوصًا طقوس قبول الأعضاء وتعميدهم في «جمعية إيزيس» المصرية السرية المفترضة، وفي «مجمع الإلوسينيا» الذي ظهر في مدينة لوسيس في تراقيا في جنوب شرق البلقان نحو ١٤٠٠ ق.م.، وفي «مجمع الكبراء» في سورية. ويُعتقد أن طائفة الأسينيين في فلسطين هي نفسها «مجمع الكبراء». وكان العضو الجديد في طائفة الأسينيين، بعد أن يتلقى التعاليم السرية، يُعمّد بالماء، ويُمنح اسمًا جديدًا منقوشًا على حجر أبيض صغير. وفي رؤيا يوحنا (٢:١٧) ورد ما يلي: «مَن يغلب سأهبه حصاة بيضاء منقوش عليها اسم جديد لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ».



رسم ماسوني: الدرجة ٣٢

III

تاريخ الماسونية الجليّ

كلمة ماسونية هي تكثيف لعبارة الفريماسون، أي «البناؤون الأحرار»، لا «حركة البنائين» التي يستعملها بعض الكتاب غير المدققين. وهي نقابة مهنية تحرص على عدم كشف «أسرار المهنة»، مثلها مثل «الكاربوناري» على سبيل المثال. والكاربوناري، أي الفحامون، اسم أُطلق على بعض المجموعات الثورية الإيطالية في القرن التاسع عشر التي كان أعضاؤها يقيمون في الغابات هربًا من الاستبداد. وفي الغابات بنوا منازلهم من الخشب، وراحوا يصنعون الفحم ويبيعونه لتأمين معيشتهم. وهناك كانوا يجتمعون ويعملون على تقويض النظام السياسي، ويتطلعون إلى تأسيس نظام برلماني ديمقراطي، وشكلوا لهذه الغاية حكومة أخوية سرية مؤلفة من ثلاثة مجالس: التشريعي والإداري والقضائي. وكان من بين قادة تلك النقابة غاريبالدي وماتزيني وكافور. وفي سنة ١٨٤٨ أسسوا جمهورية ترأسها غوسيا ماتزيني. لكن، بعدما أسقط نابليون الثالث تلك الجمهورية، قام بنفي الكاربوناريين إلى خارج إيطاليا.

وُلدت الجمعيات الحرفية الأوروبية (أو الطوائف الحرفية) في المدن، ومثّلت، تاريخيًا، المرحلة الوسيطة بين الإقطاع والرأسمالية، وكان لها شأن نهضوي وتقدمي، لأن ظهورها في المجتمع أتاح للفلاحين الأقنان إمكان الانعتاق من سلطة سيد الأرض الإقطاعي، والالتحاق بالمهن الحرفية كعمال أحرار. وكان الفلاح (القن) مرتبطًا بمالك الأرض ارتباطًا كاملًا، فلا يستطيع الانتقال من إقطاعية إلى أخرى إلا بشروط. لكن النقابات المهنية (أي الجمعيات الحرفية) حوّلت الأقنان إلى عمال، وصار في إمكان العمال، خصوصًا البنائين، أن ينتقلوا بحرية من مكان إلى آخر لمزاولة مهنتهم. ومن هنا جاءت كلمة «الأحرار» في عبارة البنائين الأحرار. فقد كان الحداد مثلًا يعمل في مكان مخصوص، والخزاف يعمل في دكانه، والحائك على نوله أمام الناس. وكانت المقايضة العينية أحد عناصر الاقتصاد آنذاك؛ فيستطيع الحداد أو النجار أو الخزاف أو الحذّاء أو الحائك أن يقايض ما ينتجه بما ينتجه الحرفيون الآخرون. غير أن البنائين، وحدهم من بين أصحاب المهن، لم يكونوا يعملون في مكان واحد، بل يتنقلون هنا وهناك بحسب أماكن إقامة مَن يرغب في بناء قصر أو كنيسة أو كاتدرائية أو جسر أو قلعة. لهذا كانت النقود هي التي تلائمهم، لا البضائع العينية، ذلك لأنهم لا يستقرون في مكان دائم. ثم إن البنّاء حين ينتقل من مكان إلى آخر كان يحتاج إلى مَن يعتني به أو يؤازره أو يدافع عنه أو يحميه أو يرشده، فعملت الطوائف الحرفية على تلك الأمور، بحيث يجد البناء أخوة له من أبناء حرفته (عشيرته) أينما حل. ويتضمن مخطوط ريجوس (١٣٩٠) تعليمات عن واجبات البنّاء نحو أبناء حرفته كمساعدة زملائه البنائين، وعدم إيواء الدخلاء في المحافل. وقد وجّهت النقود ضربة قاضية للاقتصاد الاكتفائي،

وحوّلت العلاقات الاقتصادية من المقايضة السلعية إلى التبادل النقدي. ويمكن تلخيص غايات الجمعيات الحرفية بالتالي:

١ - التعاضد، أي مساعدة المحتاجين من العاملين في الحرفة.
٢ - صيانة شرف المهنة وحمايتها من الغش.
٣ - الدفاع عن مصالح العاملين في الحرفة في وجه الحرف المنافسة، والتصدي للاحتكار؛ فلا يجوز لمعلم واحد (شيخ الكار أو الأستاذ أو الأسطى) أن يمتلك أكثر من مَشْغَلٍ واحد، وليس له الحق إلا في تشغيل عدد محدد من الصُّناع (المعلمين) والأُجراء (الصبيان المتمرنين).

إن ظهور الطوائف الحرفية في القرون الوسطى، ثم الانفصال المتدرج بين الصُّناع والتجار، كانا من بين أهم أسباب ظهور الرأسمالية في أوروبا. والمعروف أن الحرف تطورت إلى صناعات بعد أن جرى تمركز العمال في أماكن عمل موحدة، وفي المدن بالتحديد. فقد استغل التجار الأزمات المتكررة للإنتاج الحرفي (نقص المواد الخام مثلًا)، وتمكنوا من فرض سيطرة الرأسمال التجاري على الإنتاج الحرفي، ثم راحوا يوزعون المواد الأولية كالقطن والحرير والصوف وأنوال الحياكة على الفلاحين والحرفيين في منازلهم. وهكذا تمكنوا، بالتدريج، من تحويل فئات واسعة من الفلاحين إلى عمال، وفصلوا العامل عن أدوات عمله وعن إنتاجه المباشر، وهو ما أسماه كارل ماركس «الاغتراب». وكانت تلك التحولات إيذانًا ببزوغ عصر الرأسمالية الحديثة بالانتقال من طور المانيفاكتورة إلى طور الصناعة.

ارتبط نشوء الجمعيات الحرفية، إذًا، بنشوء المدن في العصر الإقطاعي

وازدهارها. وتختلف الجمعيات الحرفية، بشكل جوهري، عن النقابات؛ فالنقابات تضم العاملين في مهنة واحدة كنقابة عمال الصناعة أو نقابة المهندسين. أما الجمعيات الحرفية فتضم أرباب العمل والعمال والصُّناع والأجراء في المهنة الواحدة. وكان للجمعيات الحرفية في أوروبا شأن نهضوي في كثير من الحقب، كالوقوف ضد مظالم الإقطاعيين، وضد تواطؤ رجال الكنيسة (الأكليروس) معهم ضد الحرفيين والفلاحين الأقنان. وقد كان للنقابات الحرفية مقار ثابتة، فيما كان على البنّائين ابتداع شكل ملائم لجمعيتهم ولاجتماعاتهم، فأسسوا محافل في المدن حيث يكثر الطلب على حرفة البناء. وكانت تلك المحافل، في البداية، تدعى Lodge، أي كوخاً. وفيها كان يلتقي أعضاء الحرفة الواحدة، فيناقشون أوضاعهم وأحوالهم ومشكلاتهم. وهذه الأكواخ كانت غير ثابتة، أي في الامكان إزالتها ما إن ينتهي البناؤون من عملهم في البناء. وفيما بعد صارت تلك المحافل ثابتة، وتولت تقديم الخدمات للوافدين الجدد، علاوة على أنها أصبحت نوعًا من المنتدى اليومي. والبناؤون كانوا جزءًا من نظام نقدي للتبادل في مجتمع زراعي، خلافًا للحرفيين الآخرين كالنسّاجين والحدادين والخزافين الذين يرتبطون بالمكان، وفي إمكانهم أن يتلقوا جزءًا من أجورهم عينًا. بيد أن المقايضة ما كانت تلائم الذين لا مكان ثابتًا لهم، ويتنقلون باستمرار. وقد سُمِّي الواحد من هؤلاء «البنّاء الحر» لأنه كان حرًا في الانتقال من مقاطعة إلى مقاطعة من دون أي قيود كتلك التي تقيّد الحرف الأخرى.

الماسونيون أو البناؤون الأحرار هم أقوى الطوائف الحرفية في أوروبا في عصر الإقطاع الأوروبي. ويرجع تأسيس هذه الجمعية إلى القرن الحادي عشر. وقد تطورت الماسونية وتبدلت أحوالها التنظيمية كثيرًا، إلى أن

استقرت على ما نعرفه اليوم عنها. وانتهج هؤلاء نهج المنظمات الصارمة والسرية على طريقة القرون الوسطى لسببين: الأول هو الحفاظ على أسرار المهنة وحجبها عن الدخلاء، والثاني هو الحماية، لأن الماسونيين حين تحوّلوا من الحرفة إلى السياسة، وكانوا مناوئين للإقطاع ولسلطة البابا، كان عليهم الاحتماء بالسرية صونًا لأمنهم الفردي والجماعي. وقد ظلت الماسونية قوية نسبيًا طوال عصر الإقطاع لأنها احتكرت، إلى حد كبير، بناء الكاتدرائيات والكنائس والقصور والجسور والقلاع والحصون والمكتبات ومراكز الفنون وغيرها، لكن الثورة الصناعية قضت على نظام الحرف، وعلى نظام المانيفاكتورة، وأضعفت الجمعيات الحرفية، الأمر الذي أرغم الماسونية على التحول من الماسونية العملية إلى الماسونية الرمزية. وكان بناء الكاتدرائيات الفخمة والكنائس البديعة والقصور الباذخة قد انكمش منذ عام ١٥١٧ فصاعدًا مع انطلاق الإصلاح اللوثري، لكن حريق لندن الذي اندلع في ٢/ ٩/ ١٦٦٦، واجتاح المدينة طوال أربعة أيام متواصلة، وأتى على ١٣ ألف منزل (٧٥٪ من مباني لندن)، وعلى ٨٧ كنيسة، فضلًا عن المكتبات والمدارس وبوابات المدينة وبعض الكاتدرائيات، أعاد الانتعاش إلى الماسون. وبناءً على أوامر الملك تشارلز الثاني، كُلّفوا إعادة بناء بيوت لندن ومعالمها مثل كاتدرائية القديس بولس، والقصر الملكي في غرينيتش، وكلية تشيلسي، وبيت الصليب المقدس Holy Rood House، ومسرح أوكسفورد، وكلية اللاهوت Trinity College وكنيستها، وكنيسة المسيح Christ Church وكلية الملكة Queen's College.

في أوروبا انهارت الحرف لمصلحة الرأسمالية الصناعية الصاعدة. وفي البلاد العربية، خصوصًا في القرن التاسع عشر، انهارت الحرف جراء اندماج

الاقتصادات العربية بالأسواق العالمية، وعدم قدرتها على المنافسة كالحرير في سورية ولبنان. وفي أوروبا كان للطوائف الحرفية شأن نهضوي وتقدمي في بعض الحقب. أما في العالم العربي فظلت الحرف رجعية على العموم، ومرتبطة بالتجار وبالسلطات الحاكمة. وكانت المهن لدى العرب محتقرة وكذلك أهل الصنائع لأنهم، في معظمهم، من الموالي والأقليات الدينية. والبدو احتقروا الزراعة والحرف عدا حرفة واحدة هي الغزو. والمهنة في اللسان العربي من المهانة. ومهنة البناء لم تكن مهنة محترمة، لأن العرب الأوائل كانوا بدوًا، وليسوا من أصحاب البيوت (فهم سكان الشَّعر). أما الفلاحون (سكان المَدَر) فكانت بيوتهم من الطين، وبناؤها لا يحتاج مهارات خاصة. أما سكان المدن (سكان الحضر) فهم الذين يحتاجون إلى البنائين. والبناؤون آنذاك هم أهالي المدن المفتتحة أنفسهم كالدمشقيين والحلبيين والمقدسيين. ويصنّف ابن خلدون الناس صنفين: صاحب سيف وصاحب مهنة. أو، بمعنى آخر، غازٍ ومنتج. ومع ذلك أتاحت الطوائف الحرفية العربية، إلى حد كبير، للفلاحين المعدمين الهاربين من الإملاق أن يتحولوا إلى عمال شبه أحرار، لا يستعبدهم مالك الأرض ويفترع بناتهم؛ ففي مشغل الحرفة فإن المعلم لا يمتلك أبدان هؤلاء الفلاحين، بل عملهم. وكان المعلم الدمشقي يخاطب العامل لديه بكلمة «سيدي»، فيجيبه العامل (أي الصانع) بعبارة «سيدي وسيدك الله». ويتحدّث وجيه كوثراني، نقلاً عن إلياس قدسي، عن «حفلة الشدّ» في دمشق، أي حفلة تكريس الحرفي المبتدئ وترفيعه إلى درجة الصانع، فيصف ذلك بالتفصيل ومنها ربط الحزام على وسط المشدود، وعقد طرفي الحزام ثلاث عُقد تدل على الإخاء والاستقامة وحفظ أسرار المهنة. ويتخذ الحفل طابعاً رمزياً من خلال الحركات والإشارات والرموز، وهو ما يشبه

حفلات التكريس لدى الكثير من الطوائف الحرفية، ومنها الماسون[١]. ومن غرائب المصادفات التاريخية أن ابن الأثير، في كلامه على بناء مدينة بغداد، يروي ما يلي: «وكان الأستاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط، والروزكاري بحبتين». وكلمة روزكاري فارسية تعني الزماني (أو العَلماني بلغة زماننا الحاضر)، وتدل على عامة الناس من غير الكهنة. إذًا، العامل الروزكاري يعني العامل من غير البنائين. وليس ثمة أي صلة بين كلمة روزكاري الفارسية وكلمة روزكروشيان، أي الصليب الوردي، على الاطلاق، إنما الأمر مجرد تشابه في اللفظ. والطوائف الحرفية العربية كانت دائمًا طوائف مساواتية لأنها ضمت المسلمين والمسيحيين واليهود. أما الطاعون الأول الذي فتك بأوروبا في عام ١٣٤٧ فصاعدًا، والذي حصد نحو ٥٠٪ من سكانها، فقد مهد الدرب أمام نشوء الرأسمالية في معظم دولها، ولا سيما إنكلترا وفرنسا وسويسرا وهولندا والنمسا وألمانيا لأنه فكك تبعية الفلاح للإقطاعي، وهي علاقة حالت دون قيام نظام تعاقدي آنذاك يؤسس للعمل المأجور ورأس المال[٢]. ثم أدى الطاعون الثاني (١٥٥٥-١٥٥٦) إلى فقدان ثقة الناس بـ «العناية الإلهية». وكان لزلزال لشبونة الذي وقع في ١/ ١١/ ١٧٥٥ شأن كبير في انبثاق عصر الأنوار الأوروبي الذي ساهم فيه الماسونيون بقوة. فقد تسبب ارتفاع أمواج البحر إلى ٢٠ مترًا، واجتياح

١- راجع: وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي العربي في أواخر العهد العثماني**، بيروت-الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧، ص ٦٤-٦٦.

٢- راجع: عزمي بشارة، **الدين والعَلمانية في سياق تاريخي**، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٥، الجزء الثاني - المجلد الأول، ص ١٩٢.

تلك الأمواج مدينة لشبونة، بينما الناس محتشدون في الكنائس في عيد جميع القديسين، في موت نحو مئة ألف نسمة وتدمير ٨٥ في المئة من المدينة بما في ذلك قصورها وكنائسها ومكتباتها ودار الأوبرا والقصر الملكي والأرشيف الملكي وسجل رحلات فاسكو دي غاما. وأدى الزلزال إلى اندلاع مجادلات فكرية صاخبة، وتوجيه النقد الراديكالي إلى الكنيسة الكاثوليكية وتفسيراتها الخرافية لذلك الزلزال. فالجزويت (اليسوعيون) راحوا يرددون أن ذلك الزلزال إنما هو عقوبة من الله لتفشي الرذيلة في لشبونة، مع أن الزلزال قضى على عدد كبير من الرهبان والراهبات. وأهل المغرب هللوا للزلزال لأنهم اعتبروه انتقامًا إلهيًا من محاكم التفتيش، مع أن الزلزال نفسه أصاب بعض مناطق المغرب وقتل سكانها وهدم مسجد الرباط. والبروتستانت بدورهم وجدوا في الزلزال عقابًا من الله للكاثوليك. لكن، بعد ١٨ يومًا فقط، أي في ١٩/ ١١/ ١٧٥٥، وقع زلزال آخر على الطرف الغربي للأطلسي دمر خمسة عشر ألف منزل في بوسطن التي يقطن فيها البيوريتان (الطهرانيون). وهذا ما دفع فولتير إلى كتابة قصيدة جاء فيها: « أيها الحكماء الحمقى، أي جريمة ارتكبها هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال، وسالت دماؤهم في أحضان أمهاتهم؟ وهل كانت رذائل لندن وباريس أقل من رذائل لشبونة؟ ومع ذلك دُمرت لشبونة وباريس ترقص. أَلم يكن في مقدور الله أن يصنع عالمًا ليس فيه هذا الشقاء الذي لا معنى له؟»[٣].

٣- كان البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣) يعاني التهاب المفاصل. واعتقد كثيرون أن هذا الداء ناجم عن مرض الزهري، فيما راح الكهنة يقولون إن مرضه ناجم عن تعكر مزاج المريخ. وكانت الكنيسة تعالج السعال بحليب الحمير، وتبيع تذاكر لدخول الجنة (صكوك الغفران)، والبابا كان يضحك من سخافة عقول الدهماء وجهل الناس.

إن قوة التحولات العنيفة هي التي ترغم دولة ما، أو مجتمعًا ما على الأخذ بالإصلاح أو التغيير أو الحداثة أو الديمقراطية. فالدولة العثمانية أُرغمت على السير في الإصلاحات بعد هزيمة جيشها أمام جيش محمد علي باشا في سورية في سنة ١٨٣١، ثم في سنة ١٨٣٩، ثم بعد هزيمتها في حرب القرم أمام روسيا في سنة ١٨٥٦. وكذلك الإمبراطورية اليابانية التي تغيرت جذريًا بعد هزيمتها الماحقة في الحرب العالمية الثانية. وعلى هذا المنوال كلّفت حرب الفلاحين (١٥٢٤-١٥٢٥) ألمانيا نحو مئة ألف قتيل في عام واحد. ثم اندلعت الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت في عام ١٥٤٦ لتبلغ ذروتها في مذبحة القديس بارثولوميو في باريس سنة ١٥٧٢ التي ذهب فيها ٦٠ ألف بروتستانتي. وعلى هذا الغرار كانت حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨-١٦٤٨) وعقابيلها. وقد قُتل في تلك الحروب ١٠٪ من سكان إنكلترا، و١٥٪ من سكان فرنسا، و٣٠٪ من سكان ألمانيا، و٥٠٪ من سكان بوهيميا. ومن البدهي أن تلك الحروب تسببت في هجرات متمادية للسكان. والتهجير جعل الناس أقل صلة بكنائسهم، وخلخل سلطة الكنيسة على رعاياها، وتغيرت العلاقة الروحية بالموت، الأمر الذي أدى إلى تغير علاقة الناس بالدين. وهذه التبدلات كلها كانت من ممهدات عصر الأنوار.

لم يكن الماسون هم مَن أطلق عصر الأنوار بالتأكيد. لكن الماسون ساهموا حقًا في السجالات التي عززت تيار التنوير والعقلانية في أوروبا في مواجهة السلفيات البروتستانتية والكاثوليكية معًا. وكانت الماسونية قد عاشت حقبة ازدهارها في عصر الإقطاع، وظلت قوية جدًا في ذلك العصر لأن أعضاءها احتكروا، كما ذكرنا، بناء الكاتدرائيات والكنائس

والقصور والجسور والقلاع والمقابر ومراكز الفنون والمكتبات. لكن، مع بداية تمركز الرأسمالية، واتساع نفوذها، وتراكم ثرواتها، وازدياد قوتها السياسية، راحت الماسونية تتراجع رويدًا رويدًا جراء توقف بناء الكنائس والقصور والكاتدرائيات إلا في نطاق محدود. وفي تلك المرحلة انتقلت الماسونية مرغمة، وجراء إكراهات الواقع، من المرحلة العملية التي كانت العضوية فيها مقصورة على أصحاب مهنة البناء، إلى المرحلة الرمزية حيث صارت تقبل في عضويتها كل من يؤمن بشعاراتها وأفكارها كالحرية والإخاء والمساواة، وبات الأعضاء الجدد يسمَّون «المقبولين»، وتحولت الماسونية، بالتدريج، إلى ما يشبه الجمعيات الخيرية والروابط التضامنية. وكانت الماسونية في مرحلتها الرمزية ديمقراطية إلى حد بعيد، فكانت تجند أعضاءها من جميع الطبقات. لكنها، مع ذلك، ظلت شبه ارستقراطية، فيترأس محفلها إما الملك أو رئيس الجمهورية لاحقًا، أو أشخاص ينتمون إلى النخب العليا في المجتمع. وبقيت محافظة أحيانًا لأنها دعت في مراحل معينة إلى عدم التمرد على السلطات الحاكمة. ولأن الماسونية أوروبية تمامًا، فقد تغيرت الماسونية حين بدأت أوروبا نفسها تتغير مع صعود الطبقة الوسطى (البرجوازية أو الطبقة الثالثة)، وراحت تتأثر بالأفكار الثورية لأبناء الطبقة الوسطى. وسلك بعض الماسونيين مسلك المجموعات الثورية المعادية للإقطاع والملكية والكنيسة، فدافعوا عن الجمهورية والعَلمانية والمساواة والحريات، وكان معظم قادة ثورة الديسمبريين في روسيا التي اندلعت في١٤/ ٩/ ١٨٢٥ من الماسون الذين باتوا إلى جانب الشيوعيين فيما بعد ألد أعداء النظام القيصري.

IV

الأسرار والرموز

السرية والرموز والإشارات هي من ميراث الطوائف الحرفية الأوروبية في العصور الوسطى، ونجد ما يماثلها ويطابقها إلى حد مثير في تقاليد الطوائف الحرفية العربية. والسرية لدى الماسون هي سر المهنة أولًا، أي عدم كشف أسرار الصنعة لأحد؛ تلك الأسرار التي يتم توارثها بالتعلم والتدريب لدى الأستاذ (أو الأسطى أو المعلم أو شيخ الكار) الذي ينقلها إلى الصبيان المتمرنين قبل أن يصبحوا صُنّاعًا. وهي سرية الأفكار **ثانيًا**؛ فالماسونية حين اختارت الانخراط في السياسة المناهضة للإقطاع الأوروبي وللكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، كان عليها الاحتماء بالسرية صونًا لأمن عناصرها، وخوفًا من السلطات الحاكمة، ومن الجمهور في الوقت نفسه الذي نظر إلى الماسون كمهرطقين. وقد خشي الماسونيون تهمة التجديف كما حدث لغاليليو وكوبرنيكوس، وكما حدث لأنطوني كولينز الذي اضطر إلى اللجوء إلى هولندا بعد صدور كتابه «**خطاب في التفكير الحر**» (١٧١٣)، وكما حدث لتوماس

ولستون الذي مات في سجنه بعد أن نشر كتابًا عنوانه «**ست مطارحات في شأن عجائب مخلصنا**».

أما رموز الماسونية كالبيكار وميزان الاستواء والشاقول والمثلث المتساوي الأضلاع والمثلث القائم الزاوية فمصدرها علم الجيومتري (الهندسة)، فضلًا عن الرموز الفيثاغورية القديمة والهرمسية أيضًا، ثم اختلطت برموز جماعة الصليب الوردي التي ظهرت في سنة ١٤٠٧، وبرموز فرسان الهيكل، مع أن الخلاف كبير جدًا بين الماسونية وتلك الجماعتين. فالماسونية استندت إلى العلم كالهندسة والفيزياء وإلى الفكر العلمي (اكتشاف قوانين الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان)، وإلى الفلسفات العملية في شأن تغيير العالم نحو الحرية والمساواة والإخاء الإنساني، بينما الجماعات الغنوصية كالهرمسية والصليب الوردي كانت تعتقد بالحقائق الخفية لا بالحقائق العلمية. ورموز الماسونية فيها مصادر يهودية (الهيكل) ومصادر مسيحية (نور العالم) ورموز محايدة (الهندسة وأدوات البناء كالبيكار والميزان الشاقولي). وكثير من الجمعيات السرية الأوروبية كفرسان الهيكل والكاربوناري وحتى الشارتيين (الميثاقيين) تأثر بالتصوف الإسلامي وبالصابئة المندائية وعبادات النار والنور الشرقية وبالقبالاه اليهودية. لذلك تتضمن أدبيات تلك الجماعات رموزًا ومصطلحات وأفكارًا وطقوسًا من ذلك كله، الأمر الذي لا يجعل اليهودية مثلًا أو الإسلام أو المسيحية مرجعية مباشرة للماسونية على الإطلاق. وإذا وُجدت بعض الرموز والعبارات المشتركة بين الماسونية واليهودية فهذا لا يبرهن أي صلة جوهرية بينهما. فالرموز اليهودية، وكذلك الأفكار والمفاهيم والرؤى والعبادات والطقوس والعقائد، موجودة بقوة في المسيحية وفي الإسلام، خصوصًا في شرائع الحلال والحرام والحدود لدى المسلمين، فضلًا

عن سِيَر الأنبياء وقصة الخليقة وحكاية آدم وحواء وقايين وهابيل والطوفان وداود وسليمان وموسى وأيوب؛ فكلها مستقاة من التوراة والإخباريين اليهود القدامى. وهذه الأمور لا تتيح للمسلم أن يقول إن اليهودية هي أم الإسلام، أو إن الإسلام هو يهودية متجددة أو إنه تجديد لليهودية، أو إنه اختراع يهودي.

إن المئزر، على سبيل المثال، الذي يرتديه الماسوني، هو نفسه المئزر الذي كان يرتديه كل بنّاء ليضع فيه عدة العمل كالمسامير وآلة قياس الطول (المتر) وأقلام التعليم وميزان الاستواء الزئبقي وغير ذلك. وحتى اليوم ما برح العاملون في مهنة البناء يرتدون المئزر، ويسمونه «الوزرة» بالعامية. والمثلث المتساوي الأضلاع صار يرمز، مع تحول الماسونية من الحقبة العملية إلى الحقبة الرمزية، إلى المساواة بين البشر، وكذلك الميزان الذي بات له معنى العدالة، وللشاقول معنى الاستقامة. وهكذا انتقلت الماسونية، بحسب دعايتها، من نحت الحجارة إلى نحت العقول، ومن بناء البيوت إلى بناء الهيئة الاجتماعية. ولا ريب في أن بعض الرموز اليهودية والمسيحية دخلت على الماسونية من خلال فرسان الهيكل وكذلك من جماعة الصليب الوردي. وتحفل معتقدات الماسون بتبجيل يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول. وثمة خلط بين فرسان الهيكل الماسونيين وفرسان الهيكل (الداوية) الذين ظهروا في فلسطين في عام ١١١٩، وأولئك كانوا رهبانًا مقاتلين نذروا الطاعة والعفة والفقر، وقاتلوا المسلمين إبان حروب الفرنجة، وكانوا تابعين للبابا مباشرة الذي أعفى ممتلكاتهم الواسعة من أي ضريبة ملكية أو أسقفية. وفي عام ١٣٠٧، بعد تزايد استقلاليتهم وتمرداتهم ومشكلاتهم، قبض عليهم الملك فيليب الرابع، وأصدر البابا قرارًا في سنة ١٣١٢ ينص على حل منظمتهم، وأُعدم كثيرون منهم، وحُرق البعض أمام كنيسة نوتردام في باريس.



محفل ماسوني

٧

الماسونية واليهود

ليس صحيحًا أن الماسونية يهودية، فالربط بين الماسونية واليهودية كان أحد عناصر الدعاية النازية ضد اليهود في ثلاثينيات القرن المنصرم. ومن المعروف أن ثمة يهودًا معادين للماسونية لأسباب دينية، وهناك ماسونيون معادون لليهودية.

والماسونية، في جوهرها، تتعارض واليهودية، فهي تعتنق مبادئ المساواة بين المواطنين وفكرة الإخاء الإنساني، بينما اليهودية باعتبارها ديانة شعب الله المختار متناقضة مع فكرة المساواة بين البشر.

وقد رفضت اليهودية الحاخامية الماسونيةَ لأنها ستؤدي إلى علمنة الديانة اليهودية؛ فاليهودية الحاخامية تريد الإبقاء على الدين اليهودي وعلى اليهود كامتياز روحي لشعب الله المختار أو «شعب السبت» الذي ينتظر قدوم المسيح (الماشيح). والمعروف أن محفل فيينا الماسوني الذي أُسس في سنة ١٧٨٠ كان

من بين طقوسه أكل لحم الخنزير باللبن، وهو أمر جلل في اليهودية؛ فأكل لحم الخنزير خطيئة ونجاسة، علاوة على أن خلط اللحم باللبن محرم في الشريعة اليهودية[١]. وكانت المحافل الماسونية الألمانية والاسكندينافية ترفض انضمام اليهود إليها، مثلما رفضت المحافل الأميركية انضمام السود إليها.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى طردت المحافل الماسونية البريطانية جميع الأعضاء المتحدرين من أصول ألمانية أو نمساوية أو مجرية أو تركية[٢]. وكان كثير من اليهود قد انضموا إلى الماسونية بعد انتشار أفكار التنوير بين اليهود الأوروبيين، وبعد ضمور اليهودية الحاخامية التي كان لضمورها شأن في انتشار القبالاه بين يهود أوروبا. والقبالاه هي نوع من الغنوصية اليهودية المتداخلة مع التصوف وحسابات الأرقام السحرية القديمة.

وبما أن كثيرًا من اليهود تأثروا بأفكار التنوير الأوروبية، وانخرطوا في الحياة العامة للمجتمعات الأوروبية، فقد قدمت الماسونية مخرجًا لهؤلاء اليهود المغتربين عن يهوديتهم، والذين لا يريدون أن يعتنقوا المسيحية. والماسونية بهذا المعنى كانت تعبيرًا عن الأرضية المشتركة التي يلتقي عليها المسيحيون واليهود ويشكلون معًا مجتمعًا واحدًا متساويًا في المواطنة. وجاء ذلك التحول المتدرج بعد ازدياد معدلات العلمنة في صفوف اليهود الأوروبيين، فوجد يهود كثر أن الشيوعية الإلحادية هي ملاذهم الفكري والسياسي، بينما

١- انظر: عبد الوهاب المسيري، **الجمعيات السرية في العالم**، كتاب الهلال، العدد ٥١٥، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٣، ص٨٦.

٢- راجع: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، القاهرة: دار الشروق، الجزء الخامس، ١٩٩٩، ص٤٥٨.

رأى يهود آخرون، ولا سيما في أميركا، أن الماسونية غير الإلحادية هي الملاذ الملائم لهم.

والثابت تاريخيًا أن جذر انجذاب اليهود إلى الشيوعية أو الاشتراكية أو الماسونية هو مسألة الهوية، أي محتوى الهوية لدى اليهودي الذي يعيش في مجتمع تترسخ فيه قيم العلمانية بشكل متسارع. فطوال حقبة الدياسبورا (الشتات) كانت التوراة هي الركيزة الأساس في تشكل الهوية الجمعية اليهودية.

لكن في حقبة الهسكالاه (الاستنارة) رأى دعاة الاندماج أن في الإمكان أن يكون اليهودي مخلصًا لمجتمعه اليهودي ومواطنًا صالحًا في الدولة التي يعيش فيها، وهي دولة مسيحية على العموم، من دون أن يتمسك بوصايا التوراة. وهذا يعني زحزحة الدين عن الحياة اليومية لليهود، وخلخلة ركيزة التوراة التي كانت الأساس في تشكيل هوية اليهودي، والاتجاه إلى تأويل معاصر للعقائد التوراتية.

وفي هذا الميدان حاولت اليهودية الإصلاحية نقض فكرة المجيء الجسدي للماشيح، وأحلّت في محلها فكرة العصر الماشيحاني، أي عصر العدالة الكونية الذي سيتحقق من خلال التقدم العلمي والحضاري والسلام الإنساني. وهنا بالتحديد قدمت الماسونية مخرجًا لليهودي الذي يريد الاندماج في مجتمعه من غير أن يصبح مسيحيًا، ومن دون أن يتخلى عن دينه اليهودي ومجتمعه اليهودي معًا.

الماسونية ليس لها علاقة بالدين اليهودي، فاليهود جماعة مؤمنة تعتنق ما

هو معروف من العقائد الموجودة في التوراة والتلمود، ولها نسق إيماني يستند إلى الميتافيزيقا والغيب، فيما النسق الإيماني للماسونية لا يستند إلى الكتب الدينية، يهودية أكانت أم مسيحية أم إسلامية، بل يستند إلى العقل والعقلانية والعلم. والربط بين الماسونية واليهودية هو ربط اختزالي لا يرى الفروق بينهما البتة. وحين يلاحظ صاحب التفكير الاختزالي بعض التشابه أو التخوم المتقاربة يعتقد أنه اكتشف النار، ويبني على ذلك نتائج سياسية حديثة لا صلة سببية لها بالتاريخ الحقيقي للماسونية أو بالمنشأ الفكري لها.

والمعروف أن اليهودية الأرثوذكسية حرّمت الانضمام إلى الماسونية، واعتبرت مَن ينضم إليها خارجًا على الدين[٣]، ذلك لأن اليهودية كانت تعاني، عند ظهور الماسونية، أزمة فكرية عميقة؛ فالفكر القبالي كاد أن يقوّض اليهودية الحاخامية، ويُحل التلمود وتفسيراته في محل الإيمان التقليدي بالتوراة. وكان سبينوزا قد فكك اليهودية وبعثرها كدين وأفكار، وأزال السحر والقداسة عنها. وراح عصر التنوير يترك آثارًا هائلة على اليهود ونخبهم الجديدة، وأخذت الأفكار العلمانية تتمدد بين يهود أوروبا وتهدد قواعد الإيمان لديهم، تمامًا مثلما هددت العلمانية قواعد الإيمان لدى المسيحيين. ووجد بعض اليهود في اعتناق المسيحية مخرجًا من ذلك الاضطراب الفكري والإيماني، وإلغاءً للتناقض بين المواطنة ودين الأكثرية مع صعوبة اقتبال التثليث أو عقيدة الموت والقيامة.

هنا، على وجه الخصوص، قدّمت الماسونية نوعًا من المخرج التعويضي لليهود الذين فقدوا إيمانهم باليهودية الأرثوذكسية، وازدادت معدلات

٣- راجع: عبد الوهاب المسيري، **الجمعيات السرية في العالم**، مصدر سابق، ص ١١٢.

العلمنة بينهم، لكنهم كانوا غير راغبين في اعتناق المسيحية. وبهذا المعنى، لم يكن مطلوبًا من اليهودي اعتناق دين جديد، أو حتى رفض دينه القديم. وكل ما هو مطلوب منه إعادة تأسيس إيمانه على العقل والمكتشفات العلمية، وهو ما كان جاريًا بالفعل بين نخبهم المفكرة. ولعل سبب انضمام اليهود إلى الماسونية يكمن في أن الماسون معادون، في الأساس، للكاثوليكية ولرجال الدين، وهذه نقطة تقاطُع مع اليهود الذين فقدوا إيمانهم الديني، ورأوا أن المجتمعات العلمانية هي التي تضمن أمنهم، وتمنحهم المواطنة المتساوية. وهذه الظاهرة المركّبة وُجدت، بوضوح، في البلدان الكاثوليكية كدول أميركا اللاتينية، فيما كانت المحافل الماسونية في الدول البروتستانتية التي قطعت أشواطًا بعيدة في العلمنة تفقد قيمتها الوظيفية باطراد.

اللافت في الماسونية الأوروبية، حتى في أثناء المرحلة الرمزية، ومع أن المبدأ الثالث في شعار الماسونية هو المساواة بعد الحرية والإخاء، أن كثيرًا من المحافل، خصوصًا الألمانية والاسكندينافية، اتخذت مواقف عنصرية من اليهود، ورفضت السماح لهم بالانضمام إلى محافلها. وحذت المحافل الأميركية حذوها في رفض انضمام السود إليها، وكذلك فعلت المحافل البريطانية حين استبعدت إبان الحرب العالمية الأولى، الأعضاء الألمان والنمساويين والهنغاريين والأتراك من اجتماعاتها[٤]. لنتذكر أن هنري فورد، على سبيل المثال، كان ماسونيًا، ومع ذلك أصدر كتابًا ضد اليهود عنوانه **اليهودي العالمي** (بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٧، تعريب: خيري حمّاد). والمعروف أن أول محفل ماسوني يهودي ظهر في

٤- راجع: عبد الوهاب المسيري، المصدر السابق نفسه، ص٨٦.

إنكلترا في سنة ١٧٩٣، ثم أسس يهود فرانكفورت محفل «الفجر الجديد» في عام ١٨٠٨، الأمر الذي أدى إلى زيادة عداء الماسونيين الألمان لليهود.

واستمرت الحال على ما هي عليه من الكراهية إلى ما بعد ثورة ١٨٤٨، حين راحت المحافل الألمانية تقبل، على مضض، اليهود في عداد أعضائها. وحدث تحول مهم في علاقة الماسونية باليهودية عندما أسس الماسوني الأميركي هنري جوناس محفل بناي بريث أو أبناء العهد في نيويورك في ١٣/ ١٠/ ١٨٤٣، واتخذ المينوراه اليهودية (الشمعدان) ذات الشموع السبعة رمزًا له. والسبعة في العقيدة اليهودية تعني الكواكب السبعة والملائكة السبعة والأرواح السبعة التي تجثو أمام عرش الله.

وانضم سيغموند فرويد إلى محفل بناي بريث في فيينا في ٢٣/ ٩/ ١٨٩٧ ولم يلبث أن غادره. وفي ١١/ ٢/ ١٨٤٤ ظهر محفل صهيون برئاسة أيزك روزنبرغ، وفي أواخر ١٨٤٤ أُسس محفل أورشليم في بلتيمور. ثم افتَتح محفل بناي بريث في مصر محفل ماغين دافيد (درع داود) برئاسة الثري المشهور موسى يعقوب قطاوي، ثم أُسس بعده محفل ميمونيت (ابن ميمون) في القاهرة.

الماسونية والاستنارة

تؤمن الماسونية بإله خالق (مهندس الكون الأعظم)، وبخلود الروح، وبجوهر واحد للديانات كلها، وبوحدة البشر والوجود الإنساني مع تعددية الإيمان، أي أن لكل فرد الحق في أن يحتفظ بإيمانه كما يريد. والماسونية، بهذا المعنى، استمرار لفكرة الدين الطبيعي المؤسس على العقل. والدين الطبيعي، بحسب تاريخ هذه الفكرة، يركز على ما هو مشترك بين الديانات كلها، الأمر الذي يجعل مفهوم التسامح ممكن التحقق في المجتمع والدولة والثقافة. وكان الاضطهاد الديني والصراعات الدينية، خصوصًا بين الكاثوليك والبروتستانت، من العوامل الحاسمة التي جعلت التفكير في تأسيس دين طبيعي ضروريًا بعدما اكتشف العلماء أن النظام والقانون يحكمان حركة الكون الدقيق الصنع، ورأوا في الطبيعة نوعًا من القداسة، وراحوا يدعون إلى تأسيس الإيمان على الدين الطبيعي. وكثيرًا ما ردد جون لوك القول بأن «أعمال الطبيعة في كل مكان أبلغ دليل على وجود الله»،

وبالتالي فإن البشر لا يحتاجون الدين لمعرفة الله، بل يكفي تأمل الطبيعة للتأكد من وجوده واكتشاف إرادته». ويقول فرنسيس بيكون: إن وظيفة العالِم هي دراسة قوانين الطبيعة التي وضعها الخالق. أما تلميذه توماس براون فكان يقول إن الله يفضل الذين يقوم إعجابهم به (أي تقديسهم إياه) على العلم بدلًا من أن يقوم الإعجاب على البداوة المشدوهة التي تحملق ببلاهة إلى الطبيعة وترتعد عند كل نذير شؤم وهمي. والماسونية في الأصل جمعية لا علاقة لها بالدين عمومًا، وهي نشأت في نطاق التيار الربوبي الأوروبي الذي يستند في صوغ مفهوماته إلى العقل والمعارف العلمية، مع تأكيد الإيمان بالخالق. وهي تشبه إلى حد كبير مقولات المفكرين الإسلاميين الملاحدة الذين قدموا العقل على النقل (الوحي)، بل رفض بعضهم الوحي رفضًا قاطعًا وتصادموا مع الدين. والإلحاد في الإسلام لا يعني إنكار الخالق بل إنكار الوحي والنبوة. وعلى هذا الغرار اصطدمت الماسونية بالأديان القديمة، أي المسيحية واليهودية معًا. ومع ذلك، فإن الماسونية التي تفرض على أعضائها الإيمان بخالق أعظم للكون، لا تفرض عليهم التخلي عن دياناتهم الأصلية، بل تحث الماسوني على إعادة تأسيس إيمانه لا على الوحي، بل على العقل.

غاية الماسونية، بحسب أدبياتها ومزاعمها، «البحث عن الحقيقة» Pragmatism، وعمل الخير Philanthropy، ونشر الأخلاق العالمية Universal Ethics. ولا يمكن فهم الماسونية، أكان ذلك في طورها العملي كجمعية حرفية للبنائين، أم في طورها الرمزي كمنظمة ذات أفكار ورؤى وسياسات، إلا من خلال معرفة العصر الذي ظهرت فيه، والمقولات العقيدية التي سطعت في سمائه، والمجادلات الفلسفية والدينية التي اشتجرت في

ميادينه. وكان الماسونيون، في غضون ذلك العصر، هم المثقفين الثوريين للطبقة البرجوازية الصاعدة. وقد لمع من بينهم كثيرون جدًا أمثال فولتير ومونتسكيو وفيخته وغوته وهيردر وليسنغ وموتسارت وجورج واشنطن ومانزيني وغاريبالدي ومارا ولافاييت. وكان الطور الأول من الماسونية تعبيرًا عن الظاهرة العلمانية التي حملها مثقفو البرجوازية الصاعدة (الطبقة الثالثة)، وتبناها أحيانًا قادة عصر الإمبراطوريات. أما الطور الثاني فكان تجسيدًا لانتصار العلمنة والبرجوازية. وفي الطور الأول تلاءمت الماسونية مع النزعة الإمبراطورية التي أرادت توظيف الطبقة الثالثة الصاعدة في سياق بناء الدولة القومية، وفي التصدي للكنيسة. لهذا انضم إلى الماسونية ملكا بروسيا فريدريك الثاني وفريدريك الثالث، وإمبراطور فرنسا نابليون بونابرت. وهؤلاء، بسبب طموحاتهم الإمبراطورية، كانوا يشجعون الاكتشاف وارتياد المجاهل والآفاق، وكانوا، في الوقت نفسه، لا يخشون الماسونية التي كانت تدعو أتباعها، في الظاهر، إلى احترام السلطات المدنية، وإلى عدم الاشتغال بالسياسة. وكان الإمبراطور فريدريك الثاني، على سبيل المثال، مصلحًا كارهًا لرجال الدين الذين وقفوا ضد إصلاحاته. وهو الذي أسس أكاديميته، وعين دالامبير رئيسًا لها، وكان صديقًا لفولتير وراعيًا لمفكري عصر الأنوار، وأشرف على ترجمة فلسفة ابن رشد إلى الألمانية، وعهد بتلك المهمة إلى بعض يهود الأندلس الذي فرّوا من شبه الجزيرة الإيبرية إلى مقاطعة بروفنسيا القريبة من جبال البيرينيه. وكان البابا غريغوريوس التاسع يردد[1]: «إن هذا الملك، [أي فريدريك] ملك الفساد،

١- تطلع كثيرون إلى قيام الإمبراطور فريدريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) بتطهير الكنيسة من الترف والثراء المبالغ فيه، وتقويض سلطة رجال الدين، ومصادرة ثروة كنيسة=

يقول إن العالم مخدوع، وإن مَن خدعه ثلاثة مات اثنان منهم في المجد والعز [موسى ومحمد]، وأحدهم، أي المسيح، مات صلبًا (...). وفريدريك هذا كان يقول: يجب عدم تصديق أي شيء إلا إذا أثبته العقل الطبيعي ونظام الكائنات»[٢]. وعلى مثال فريدريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) جاءت الإمبراطورة كاترين الثانية، الألمانية الأصل، فقلبت زوجها بطرس الثالث، وحكمت روسيا منذ عام ١٧٦٢، وراحت تعزز سلطة الدولة على حساب سلطة الكنيسة الأرثوذكسية، وأسست الأكاديمية الروسية، وشجعت بناء المدن الحديثة على البحر الأسود.

= روما وثروة البابا الذي هو عدو المسيح، وتوزيع ذلك كله على الفقراء الذين هم المسيحيون الحقيقيون. ولما توفي هذا الإمبراطور فجأة في عام ١٢٥٠ انتظر كثيرون عودته على حصانه ليحكم العالم، ويمحق رجال الدين من البابا فما دون، ويذبح جميع المرابين والتجار والمحامين عديمي الضمير، وستكون الثروة، في عهده الجديد، عادلة، وستُمحى الملكية الخاصة وتصبح الأشياء كلها مشاعًا (انظر: مارفن هاريس، **مقدسات ومحرمات وحروب**، بيروت - الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧، ص٢١٨).

٢- راجع: فرح أنطون، **ابن رشد وفلسفته**، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٧، ص ٣٦٢.

VII

الربوبية والتأليهية

الربوبية تيار فكري أوروبي سعى لفهم الدين في سياق ظهور الأساطير والديانات والأفكار الميتافيزيقية، ورأى أن الدين الطبيعي قديم وسابق على ديانات الوحي. وكلمة الربوبية Deism بالإنكليزية، مشتقة من كلمة Deus اللاتينية التي تعني «الرب» وتعني الدين الطبيعي في الوقت نفسه، وهي فلسفة عقلانية استعملت خطابًا دينيًا للدفاع عن العقل المحض وعن المادية التجريبية، وأرادت تنقية المسيحية من القصص والعجائب والمعجزات والخوارق والخرافات، وبحثت في سبيل ذلك عن «حقائق إيمانية» يقبلها العقل، وتخلت عما لا يقبله العقل. وفي هذا الميدان نظر كثير من مفكري البروتستانت المتأثرين بالأفكار الربوبية إلى المسيح كمعلم أخلاقي لا بصفته ابنًا لله، وكانوا يرون أن الأخلاق، وليس الإيمان، هي جوهر الدين، ويقولون إن الناس العقلانيين يعبدون الله على أكمل وجه حين يعاملون إخوانهم في الإنسانية بالعدل والمساواة.

ترى الربوبية أن العالم ليس قديمًا، وأن هناك إلهًا واحدًا خلق العالم، وأن في الإمكان التوصل إلى معرفة الله بالعقل، أي بمعرفة قوانين الطبيعة التي تعبّر عن إرادة الخالق وقدرته، وليس ثمة حاجة إلى الوحي أو المعجزات أو الكتب المقدسة حتى نعرف الخالق. والربوبيون Deists جماعة من الناس تؤمن بالله من دون الإيمان بأي دين، أي أنها تؤمن بالدين الطبيعي المبنيّ على العقل لا على الوحي، والذي ينكر تدخل الله في نواميس الكون. والربوبية تسعى إلى تحديد صفات الله وأفعاله ببراهين عقلية لا بالتسليم بما نقله الوحي. وبهذا المعنى فإن الربوبية ليست إلحادية. والله في فكر الربوبيين لا يتدخل في شؤون الكون بشكل يتنافى وقوانين الطبيعة التي صممها بنفسه. وكانوا يشبّهون عمل الله بصانع الساعة الذي يصنعها ويضبط آله الحركة فيها، ثم يتركها بعد ذلك لتعمل وحدها بكل دقة، ويتوارى عنها تمامًا.

ركزت الربوبية على المعجزات الواردة في العهد القديم، وعلى معجزات المسيح والقديسين والرسل، ووجدت في ذلك كله خُبالًا. وفي نصوص الربوبيين كلام مستفيض على أن جميع معارفنا الدينية هراء بهراء، وما يعتقده رجال الدين أنه «حقائق» ما هي إلا خيالات وأوهام موروثة. وكل ما يدعيه الدين من علوم وحقائق ما هو إلا مهزلة متواصلة؛ فقصة شمشون ودليلة ليست وحيًا من الله، بل مجرد حكاية مسلية. وتساءلوا: هل قصص الملك داود الجنسية وحي من الله إلى موسى؟ وإذا كان الله قد أراد تخليص البشرية من خطاياها، أما كان في إمكانه إيجاد وسيلة لذلك ما دامت إرادته لا تُرد، بدلًا من التعذيب والصلب اللذين أُنزلا بالمسيح؟ وسخروا من قصة آدم وحواء والهبوط من الجنة، وطفقوا يتساءلون في مجادلاتهم مع الكاثوليك بقولهم: لماذا نهى الله الإنسان عن الأكل من شجرة المعرفة في

الجنة ما دام هو بالذات مَن خلق له معدة؟ لقد شعر آدم بالظلم لأن الله منحه معدة ثم منع عنه الأكل من تلك الشجرة. وجادلوا كثيرًا بمقولاتهم التالية: ما دام الله يعرف ما كان وما سيكون وما هو كائن، وما من شيء يحدث إلا بأمره، فلماذا نهى آدم عن الأكل من شجرة الجنة، ثم قضى عليه أن يأكل منها، ولما تحرك ليأكل لم يمنعه؟ ألم يكن الله قادرًا، قبل أن يتذوق آدم قطعة من التفاحة، على منعه من ذلك؟ وإذا كانت غاية الله خلق الجنس البشري، فلماذا خلق مئة مليار مجرة، وفي كل مجرة ملايين النجوم والكواكب؟ أليس خلق تلك المجرات والنجوم والكواكب الفارغة والموحشة وغير الصالحة للحياة جهدًا بلا غاية وخلائق لا لزوم لها؟

نزع الربوبيون السحر عن الأسطورة وعن الحكاية الدينية أيضًا، مع إعادة تفكيكها وفهمها أنثروبولوجيًا. وفي هذا الميدان عكفوا على نزع السحر عن الدين نفسه حين راحوا يفسرون قصص التوراة والأناجيل تفسيرًا أدبيًا لا تفسيرًا إيمانيًا، ويرفضون المعجزات والخوارق ويعتبرونها، في أحسن الأحوال، تاريخًا بشريًا خالصًا لا علاقة للإله به[1]. وأغلبية فلاسفة

١- في إحدى مآدب العشاء في جامعة أوكسفورد راح أحد الأنثروبولوجيين يتحدث عن معتقدات إحدى قبائل الكاميرون، ومنها، على سبيل المثال، اعتقادهم بأن للسحرة أعضاءً غير موجودة لدى الناس، وهم يرسلونها في الليل لإبادة المحاصيل الزراعية، أو لقتل هذا الشخص أو ذاك. فقاطعه قس قائلًا: كيف تتحملون مثل هذه السخافات؟ فرد عليه عالِم الأنثروبولوجيا قائلًا: يا حضرة المحترم، لو قلنا لأبناء تلك القبيلة إن هناك شخصًا يدعى المسيح، ولد بلا أب، ومن أم عذراء، وتمكن في أحد الأيام من أن ينادي ميتًا يدعى لعازر فقام للتو من قبره. وهذا الشخص المولود بلا أب ومن أم عذراء، والذي أحيا ميتًا، صُلب وتألم ومات ودُفن. لكنه، في اليوم الثالث، دحرج=

الأنوار الأوروبيين في القرن الثامن عشر، أرادوا نقد الدين، وحتى تهديمه معرفيًا، لكن، استنادًا إلى العلم. يقول توماس هوبز إن معظم الدين، إن لم يكن كله، قائم على حجج معطوبة ومغالطات منطقية، وهو، علاوة على ذلك، قائم على أربعة عوامل أساسية:

١ - الاعتماد على الأرواح.
٢ - الجهل بأسباب الظواهر.
٣ - عبادة ما يخشاه الإنسان.
٤ - الخلط بين المصادفة والنبوءة[٢]. والمعروف أن معظم فلاسفة الأنوار، خصوصًا الفرنسيين، كانوا من الربوبيين أمثال مونتسكيو وروسو وجون لوك ولالاند، فضلًا عن إسحق نيوتن، وقد رفض هؤلاء التنويريون تصديق قصة الخلق التوراتية التي جرت في ستة أيام، وقصة هبوط آدم وحواء من الجنة وظهور السلالات البشرية منهما، وكذلك إيقاف يشوع بن نون الشمس فوق جبعون، وقصة أهل الكهف.

اتخذ نقد الدين لدى فلاسفة الأنوار مسارات ثلاثة هي:

١ - نقد الميتافيزيقا كما تمثلت في العقائد الدينية والطقوس والأساطير المرافقة.

= الصخرة عن قبره، وقام، ثم سار بعيدًا إلى حيث التقى أصدقاءه، ثم صعد إلى إحدى قمم التلال، وحلّق بجسده إلى السماء. فماذا سيقول هؤلاء حين يستمعون إلى هذه الحكاية؟

٢- انظر: عزمي بشارة، **الدين والعلمانية في سياق تاريخي**، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣، الجزء الأول، ص ٢٨١.

٢ - نقد المؤسسات الدينية وسلوك رجال الدين وتسلطهم.
٣ - نقد فلسفي لفكرة الله.

كان عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) يقول: «لا دليل عقليًا أو علميًا على وجود الله، لكن، ليس ثمة أي دليل عقلي أو علمي على عدم وجوده». فالله غير قابل للتعريف أو الفهم، ولا يمكن إثبات وجوده بأي برهان علمي، لأنه ليس موضوعًا للدراسة مثل أي موضوع آخر. ولهذا رأى بعض المفكرين أن الله هو الصانع الأخلاقي للعالم فحسب، على غرار فولتير (١٦٩٧-١٧٧٨) الذي أرسل رسالة إلى الإمبراطور فريدريك الثاني قال له فيها إن وجود الكائن الأسمى من أكثر الأمور احتمالًا. لكن ليس هناك أي دليل على وجود هذا الكائن. وفولتير المنتمي إلى التيار التأليهي كان يعتقد أن هناك نوعين من التأليهية: الأول يعتقد أن الله خلق الكون من دون أن يستنّ له أي قوانين أخلاقية، وهذا هو المذهب التأليهي الفلسفي. والثاني يؤكد أن الله أعطى الإنسان قانونًا أخلاقيًا يهتدي به، وهو ما يسمى التأليهية الدينية. وكان فولتير ينفر من التأليهية الدينية، ويميل إلى التأليهية الفلسفية. وقد انضم فولتير إلى الماسونية في سنة ١٧٧٨ . وفي هذا الميدان كان المذهب الليبرتاني Libertinism يدعو إلى التحرر من الدين، وينكر الدين، وينكر العقائد الدينية، لكنه لم يُنكر وجود الخالق، كالماسونية تمامًا. وفي هذا الميدان أنكر دايفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) خلود الروح والمعجزات الواردة في العهدين القديم والجديد. وكان جوليو سيزار فانيتي (١٥٨٥-١٦١٩) يجادل بالتالي: كيف يمكن أن يخلق إله غير مادي عالمًا ماديًا؟ وكان يعتقد أن المخلوقات خرجت إلى الوجود نتيجة الحرارة والعفن على نحو ما تخرج الديدان من قطعة الجبن العفنة، وأنكر وجود كائنات غير مادية كالأشباح والأرواح. وقد أُعدم فانيني في تولوز

في عام ١٦١٩. أما دايفيد شتراوس صاحب كتاب «**حياة المسيح**» (١٨٣٥) فكان يردد أن الله فكرة بشرية، وينبغي عدم دراسته ما ورائيًا، بل كفكرة من خلال وظيفته البشرية، لأن الأساطير والمعجزات لا تُعالج علميًا أو منطقيًا، أو من خلال الشك الفلسفي، فهي رموز تخييلية لا تعبّر عن وقائع حدثت بالفعل، بل عن حالة الذهن البشري في مرحلة معينة.

شدد الملحدون في أوروبا على إنكار ألوهية المسيح، واعتباره إنسانًا مثل بقية البشر، وأنكروا معجزاته، كما أنكروا وجود الله والأرواح وخلود النفس والجحيم والملائكة. وكثيرًا ما استندوا إلى أبيقور في قوله: «إذا كان الله يريد أن ينزع الشرور من العالم ولم يستطع، فسيكون عاجزًا. وإذا كان قادرًا ولا يريد ذلك، فسيكون شريرًا ينكّل بالبشر. وإذا أراد ذلك وكان قادرًا عليه، فلماذا لم ينزعها؟».

استجاب الفكر الربوبي، بقوة، لمن فقد إيمانه التقليدي، لكنه ظل غير قادر على تقبل عالم بلا خالق. والربوبيون أنفسهم فقدوا إيمانهم بالدين المسيحي واليهودي أيضًا، لكنهم لم يتقبلوا عالمًا بلا خالق؛ فقد جردوا العالم من الدين، بيد أنهم احتفظوا من الدين بفكرة الخالق كي لا يصبح الكون فارغًا، وأرادوا أن يحوّلوا المسيحية إلى مذهب أخلاقي لا أن يحافظوا عليها كعقيدة دينية[٣]. وكان السؤال آنذاك: هل يمكن تأسيس دين جديد بلا إله؟ وكان الجواب عسيرًا، إذ حوّلت الربوبية الله إلى مبدأ أو فكرة أو قانون تفسيري مثل قانون الجاذبية. وإذا كان الله مجرد مبدأ تفسيري، فإن فكرة العبادة كلها تصبح بلا معنى. وإذا كان الله مجرد مبدأ لتفسير الكون، فهو إذًا من خلق الإنسان، أي

٣- راجع: وِل ديورانت، **قصة الحضارة**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨، الجزء ٣٠، ص ٢٨٥.

أن الله غير موجود. وإذا كان الله غير موجود فهذا يعني أن الخالق الموجود حقًا هو الإنسان، فيما يُمسي الله أحد مخلوقات الإنسان، أو مجرد رمز أو معنى أو كلمة أو كائن رمزي له وجوده على المسرح مثل الشيطان.

في هذه الحال يصبح في إمكان الإنسان أن يؤمن بالله أو لا يؤمن، لأن الله، لدى البعض، هو مصدر الحركة في الكون، لكن لا علاقة له بالعالم، على مثال صانع الساعة، وهذا ما توصل إليه عالم الفيزياء إسحق نيوتن بعدما كان راهبًا في بدايات حياته. والماسونية في هذا المجال، وفي جانبها الإيماني ربوبية تمامًا. وأبعد من ذلك، فهي «إلحاد من لا يريد الإلحاد»[٤].

ظهرت كلمة ربوبي Deist في سنة ١٦٢٧ تقريبًا. والربوبية نفسها بدأت بكتاب **«الحقيقة»** لهربرت تشاربري الذي نشره في سنة ١٦٢٤. ثم نشر أحد تلامذته الذي يدعى تشارلز بلاونت (١٦٥٤-١٦٩٣) رسالته الموسومة بعنوان **«النفس البشرية»** (١٦٧٩) وفيها يقول إن كل ديانة إنما اخترعها دجالون أفاكون سعوا إلى السلطة السياسية أو إلى الثروة. والجنة والجحيم هما من المخترعات البارعة التي ابتدعوها لخداع الناس واستغلالهم. ويضيف بلاونت في رسالة **«النفس البشرية»** أن الروح تموت مع الجسد، وأن الإنسان والحيوان متشابهان، حتى أن الإنسان ليس إلا قردًا مصقولًا. واقترح في كتابه **«بيان موجز عن ديانة الربوبيين»** (١٦٨٦) تأسيس ديانة ربوبية خالية من أي عبادة أو طقوس في ما عدا عبادة الله بالفضيلة وبالحياة الفاضلة القائمة على الأخلاق. أما في كتابه **«وحي العقل»** (١٦٩٣) فقال إن اللاهوت المسيحي قام على توقع قرب نهاية

٤- انظر: عبد الوهاب المسيري، **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، الجزء الثاني، ص ٥٦.

العالم، وهو أمر خاطئ. وسخر من قصص الكتاب المقدس عن الخليقة وعن خلق حواء من ضلع آدم، وعن الخطيئة الأصلية وإيقاف يشوع الشمس فوق جبعون ونهاية العالم، واعتبرها كلها سخافات صبيانية. وقد انتحر بلاونت في سنة ١٦٩٣. ومن أهم أعلام الربوبية جون تولاند (١٦٧٠-١٧٢٢) الذي ألّف كتاب «**المسيحية من دون أسرار**» (١٦٩٦) وكان ماسونيًا، وكذلك أنطوني كولينز صاحب «**بحث في التفكير الحر**» (١٧١٣)، و«**بحث في الحرية الإنسانية**» (١٧١٥) ووليم هويستون وكونيارز ميدلتون وبولنبروك وتوماس وولستون صاحب «**ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا**» الذي يقول فيه إن قصة قيامة المسيح من الموت خدعة صاغها الرسل. وتساءل: لماذا، مثلًا، لعن المسيح شجرة التين التي لم تكن قد أثمرت بعد، ما دام موعد الإثمار لم يكن قد حان؟ وكان رفضُ بعض العقائد المسيحية قد ظهر منذ القرون الميلادية الأولى، فرفض نسطوريوس وصف مريم بأنها «أم الله»، وقال إنها أم المسيح في طبيعته البشرية وحدها، لا أم الكلمة Logos. ويضيف: أنجبت مريم إنسانًا صار وسيلة الألوهية، لكنه ليس إلهًا، ولا يمكن أن تحمل إمرأة الله في رحمها تسعة أشهر، وأن يتغطى بأغطية الأطفال، أو أن يعاني ويموت ويُدفن. وفي هذا السياق ظهرت فرق كثيرة تتعارض في أفكارها مع تعليم المسيحية. فأنكر أعضاء جماعة الدوسيتية Docetism أو الظاهرية مجيء المسيح بالجسد، وقالوا إن المسيح روح ظهر كأنه جسد. أما جماعة التبني Adoptionism فقالوا إن مريم لم تلد الكلمة، وأن عيسى هو ابن يوسف النجار، وهو لا يختلف عن باقي البشر، وما يميزه هو أن روح الله هبطت عليه، وأن الله تبنى عيسى. ومنذ ذلك الوقت صار قادرًا على صنع المعجزات، لكنه ليس إلهًا. وكانت فرقة «الموحدون» قد أثارت الشكوك في القرن السادس عشر في ألوهية المسيح.

جوردانو برونو والتأليهية

جوردانو برونو هو معلم جميع مفكري الربوبيين الذين جاؤوا بعده، مع أن باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) هو من مَنح الربوبية شكلها الفلسفي، فكان من القائلين بوحدة الوجود، وأن الطبيعة والله واحد. وأنكر سبينوزا ألوهية المسيح واعتبره «سيد الأنام» جراء حكمته التي منحها الله له. وقد أُغرم سبينوزا بأفكار جوردانو برونو، فطرده مجمع اليهود في أمستردام من الجماعة اليهودية في ٢٧/ ٧/ ١٦٦٥. وبحسب الربوبية، فإن الكون لا نهائي، وليس له مركز أو حدود أو محيط أو ارتفاع أو انخفاض، وكل شيء يجري ويتحرك ويدور. ووراء هذه العوالم التي نراها ثمة عوالم أخرى، ووراءها عوالم لا حصر لها... وهكذا إلى ما لا نهاية. ولما كان الكون غير متناهٍ، والله لا نهائيًا، ولما كان من غير الممكن أن يوجد لا نهائيان في الوقت نفسه، فإن الله والكون هما شيء واحد، إذ ليس هناك مدبّر أو خالق أول، بل حركة وطاقة مبثوثة في كل جزء من هذا الكون. والله ليس عقلًا خارجيًا،

بل موجود في كل جزء من جزئيات الطبيعة (وهذا هو لبّ مذهب وحدة الوجود pantheism).

يقول التأليهيون إن للإنسان دليلين على وجود الله. الأول هو العقل الذي يكتشف العالم وقوانينه، والثاني هو القانون الأخلاقي المحفور في ضمير الإنسان. والله لديهم يتسم بالخير والحكمة، وقد كفّ عن التدخل في شؤون الكون ما إن انتهى من خلقه، ولذلك فإن الكون يسير بمقتضى القوانين التي وضعها الله، والتي لا تتبدل أو تتغير. فالتأليهيون، بهذا المعنى، عقلانيون يشدهم الحنين إلى الإيمان بالدين. وفي خضم ذلك الجدال الذي احتدم بقوة في القرن السادس عشر، ثم في القرنين اللاحقين، راوحت فكرة الله بين صورتين: الصورة الأولى مستمدة من العهد الجديد (الأناجيل)، وهي صورة ساحر يأتي بالعجائب والمعجزات ليُبهر الناس ويُقنعهم بأقواله حتى يجعلهم أتباعه، أي مؤمنين به.

والصورة الثانية مستمدة من التفكير التأليهي التنويري (الماسوني فيما بعد)، والتي تُظهر الله على أنه مهندس الكون الأعظم الذي خلق الكون بدقة الرياضيات، وأحكم صُنعه، ورسم روعته. وعظمة الله لدى التأليهيين لا تكمن في خرق قوانين الطبيعة كما زعم موسى والمسيح، بل في الحفاظ عليها[1].

ولد جوردانو برونو في بلدة نولا القريبة من نابولي في سنة ١٥٤٨، ونهل من مكتبة دير الدومينيكان في نابولي التي كانت تحوي كنوزًا من كتب

١- للشاعر المصري الماسوني أحمد زكي أبو شادي نص بعنوان «عقيدة الألوهية» أصدره في سنة ١٩٣٦، وهاجر لاحقًا إلى أميركا.

الفلسفة، وافتتن بمذهب ديمقريطس الذري، وبالأساطير اليونانية التي قادته إلى طرد اللاهوت المسيحي من رأسه. ومع ذلك رُسم كاهنًا في سنة ١٥٧٢، لكن غرائزه الجنسية ظلت فائرة، ففرّ من الدير في سنة ١٥٧٦، وخلع رداء الرهبنة، وراح يتنقل بين المدن الإيطالية. غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الدير مجددًا. ولم يطل الزمن حتى خلع ثوب الكهنوت ثانية، وراح يجول في المدن الأوروبية مثل ليون وتولوز ولندن وأوكسفورد وباريس وفرانكفورت، ويلقي المحاضرات، فاعتبرته محكمة التفتيش في إيطاليا خارجًا على القانون. وفي ٢٣/ ٥/ ١٥٩٢ قُبض عليه في البندقية. وأمام المحكمة أنكر التثليث والتجسد المسيحيَّين، واتهم المسيح والرُسل بخداع الناس وتضليلهم بالمعجزات المزعومة. وكان يقول بضرورة إحلال الفلسفة في محل الدين، وإن الانغماس في الملذات ليس خطيئة، وإنه هو نفسه أشبع شهواته واستمتع بالنساء، إلا أن عدد النساء اللواتي استمتع بهن لم يبلغ عدد النساء اللواتي استمتع بهن الملك سليمان بن داود. وقد جرى ترحيله إلى روما في ٢٧/ ٢/ ١٥٩٣، وبقي في التحقيق أمام كبار الكرادلة حتى ١٩/ ٢/ ١٦٠٠، وظل متمسكًا بأقواله، ورفض التراجع عن أفكاره. وفي ذلك اليوم، جُرد من ثيابه، ورُبط لسانه، وشُدّ إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الحطب في بيازا كامبو دي فيوري (حديقة الزهور في روما)، وأُحرق حيًا.

كان جوردانو برونو يحلم بتأسيس دين جديد مبني على العلوم ومكتشفات العلم، وعلى روحانيات الديانات المصرية القديمة وتفاعلها المتبادل مع الفيثاغورية والأفلاطونية. ودعا إلى وحدة الوجود Pantheism أي وحدة الله والكون، واعتبار الإنسان هو الكون الأصغر الموجود في الكون الأعظم

المسكون بالروح، والذي جعلته الفلسفة مسكونًا بالعقل أو بالرب. وقد تأثر برونو بالأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية وأساطير الخلق القديمة والأساطير الإغريقية أيضًا. ويعكس كتابه «**ظلال المُثُل**» نزعته الأفلاطونية التي ترى أن الأشياء، أو عالم الواقع، هي ظلال لعالم المُثل الروحاني، أو عالم الحقائق. والأفلاطونية الجديدة جعلت الله مثل ينبوع تفيض نورًا في مركز الكون. ويُقاس الظلام والجهل، والنور والمعرفة، بالاقتراب من تلك النافورة أو الابتعاد عنها. وتطورت هذه الفكرة لدى الربوبيين إلى القول إن مهمة العلم والفلسفة هي اكتشاف العقل في الأشياء. ويقول برونو إن في الطبيعة أضدادًا وقوى متعارضة ومتناقضات. لكن، في الكون تتآلف جميع المتضادات وتتجانس (وهو ما تحدث عنه فيثاغورس في مقولاته عن الموسيقى والأعداد).

ويضيف برونو أن وراء التنوع المحيّر في الطبيعة، توجد وحدة رائعة وعجيبة كأن الجميع أعضاء في كائن واحد. لذلك، فإن معرفة تلك الوحدة الهارمونية واكتشاف جوهرها هما هدف العلم والفلسفة، وهما الدواء الشافي للعقل. وفي هذا الحقل المعرفي لا بد من الانعطاف نحو العقائد الغنوصية القديمة التي كثيرًا ما سعت إلى اكتشاف أسرار الكون للتحكم به من خلال المعرفة الخفية بحسب مقولات الغنوصية. غير أن الربوبية، والماسونية في سياقها أيضًا، أرادت اكتشاف قوانين الطبيعة بالعلم للتحكم بها. والصوفية أيضًا حاولت إقامة علاقة بين المرئي وغير المرئي، أي بين الإنسان والله، والعالم لديها إنما هو تجلي الله.

وهنا يتشارك السحر، وهو شأن بدائي، مع العلم، وهو حديث نسبيًا،

في محاولة تسخير قوى الطبيعة للسيطرة عليها. أليس العلم، في تعريفه الأشمل، محاولة دائمة لاكتشاف قوانين الطبيعة والسيطرة عليها؟ وما قوانين الطبيعة، في نهاية المطاف، إلا إرادة الله متجلية بنفسها.

في سياق واحد ظهرت الفلسفة «التأليهية» Theism كفلسفة عقلانية تستعمل خطابًا دينيًا لغاية محددة هي الدفاع عن العقل المحض وعن المادية التجريبية. وعلى خلاف الربوبية التي لا تعتقد بتدخل الله في شؤون العالم، فإن التأليهية تجعل عناية الله محيطة بكل شيء في العالم. وإسحق نيوتن، هذا الفيزيائي العبقري، كان آريوسيًا مؤمنًا بأن الله يعتني بالعالم. وآريوس، المطرود من الكنيسة، كان غير بعيد عن معتقدات فرقة النصارى الذين هم غير مسيحيين وغير يهود؛ فلم ينكروا نبوءة المسيح كاليهود، ولم يؤمنوا بألوهيته كالمسيحيين. وأظن أن فرقة النصارى وأفكار آريوس، وكذلك تعاليم نسطوريوس الذي رفض ألوهية المسيح، واعتبره إنسانًا اختاره الله ليكون وسيلة للألوهة، كانت معين النبي محمد في صوغ عقائد الإسلام.

والتأليهية تيار فكري اعتبر الدين الطبيعي دينًا قديمًا وسابقًا على ديانات الوحي، ودعت كل مؤمن إلى عدم التنكر لدينه الأصلي، بل إلى إعادة تأسيس إيمانه، لا على الوحي، وإنما على العقل. وهذا بالتحديد ما دعت إليه الماسونية خصوصًا في طورها الرمزي. ومن أبرز المفكرين التأليهيين الذين من الصعب اكتشاف التخوم بينهم وبين الربوبيين والماسون كل من ماثيو تيندال وروبرت بويل وتوماس مورغان وبريتون ديدرو[٢]

٢- اشتُهرت عبارة على لسان الماسوني ديدرو هي التالية: «علينا أن نشنق آخر الملوك بمصران آخر الكهنة». ونُسبت العبارة نفسها إلى الكاهن يوحنا ميسلي.

(١٧١٣-١٧٨٤) وتوماس بين (١٧٣٧-١٨٠٩). وكان توماس بين معاديًا للمسيحية التي يصفها بأنها ألد أعداء العقل. ورفض قصة ولادة المسيح من أم عذراء، ثم قيامته بعد الموت. ورفض كذلك العهد القديم وصورة الله فيه، فهو إله يأمر بارتكاب جرائم القتل الجماعي ما يجعل أولى صفات الله، أي العدل، غير موجودة في إله العهد القديم(٣). ولتوماس بين كتاب عنوانه «**عصر العقل**». وهؤلاء هم الذين مهدوا السبل لظهور «نزعة التفكير الحر» التي صاغ رؤيتها أنطوني كولينز في كتابه المشهور «**خطاب في التفكير الحر**»، الذي نشره في سنة ١٧١٣(٤).

٣- الله في المسيحية هو مصدر العدل، والكهنة، بحسب الكنيسة، هم مَن يدير العدالة، والملك هو شمس العدل، ولهذا فهو لا يخضع للقوانين، لكنه يخضع لها بإرادته، لأن من غير المسموح له ألا يحكم بغير العدل، وعليه أن يخضع للعقل، والعقل يملي عليه أن يخضع للقانون حكمًا، والمتوقع منه أن يحكم بالعدل. لكن العقل عند مارتن لوثر هو «عاهرة الشيطان» أو القحبة التي تتبع الشيطان. والخلاص لدى لوثر يكون بالإيمان بأن الله يمكن أن يرحم الخطأة. ولذلك فالخلاص يكون بالإيمان الحرفي بالكتاب المقدس، لا بالعقل. ولوثر، على مستوى الإيمان، مثل الوهابيين أو الدواعش في عصرنا.

٤- لمزيد من المعلومات عن التأليهية وجوردانو برونو والماسونية انظر: عزمي بشارة، **الدين والعلمانية في سياق تاريخي**، جزآن في ثلاثة مجلدات، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣ و٢٠١٥.

IX

الملاحدة العرب: قبل الربوبية في أوروبا

من مفارقات تاريخنا أن المنطقة العربية التي ولد الدين فيها، لم تعرف أي حركة فكرية شاملة لنقد الدين. وجُلّ ما شهدته في عصر الازدهار العربي القديم والمتقادم، بعض الملاحدة الذين خَبَتْ أفكارهم بالتدريج، ولم تتمكن مقولاتهم من أن تحفر عميقًا في التفكير العربي الجامد كالجلمود أمثال ابن الريوندي ومحمد بن زكريا الرازي وأبو العلاء المعري والكندي الفيلسوف وصالح بن عبد القدوس وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وأبو عيسى محمد بن هارون الوراق والفقيه الأندلسي المنتحر ابن سبعين، علاوة على ابن المقفع وبشار بن بُرد وحمّاد عجرد وعبد الكريم ابن أبي العوجاء وجابر بن حيان.

والإلحاد العربي أنكر الوحي والنبوءات ولم ينكر الخالق، ومثّل تجديدًا شجاعًا في الفكر العربي، إذ أحلّ العقل في محل النقل، أي الوحي، والإنسان في محل النبوة. وجوهر تفكير الملاحدة العرب هو التصدي لتحرير الإنسان

من الوحي ومن سلطة الوحي. وقبل ما لا يقل عن خمسة قرون على ظهور الماسونية والربوبية والتأليهية كان ابن الريوندي يقول: «إذا كان الدين متفقًا مع العقل فلا حاجة لنا به، وإذا كان مخالفًا العقل فنحن نرفضه». وله في هذا الموقف عبارة أخرى هي: «إن العقل أعظم نعم الله، وإنه هو الذي يُعرف به الربّ ونعمه. فإن كان الرسول يأتي مؤكدًا لما فيه، فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته، إذ قد غُنينا بما في العقل عنه. وإن كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر، فحينئذٍ يسقط عنا الإقرار بنبوته».

وعلى غرار مفكري عصر الأنوار وفلاسفته، وعلى منوال المفكرين الربوبيين، سخر ابن الريوندي من بعض مناسك الحج مثل رمي الحجارة (الجمار)، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يُبصر، والجري بين حجرين (السعي بين الصفا والمروة). ويقول ابن الريوندي: «لما وصف [النبي] الجنة قال: فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وهو الحليب، ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع. وذكر العسل، ولا يُطلب صرفًا. والزنجبيل وليس من لذيذ الأشربة. والسندس يُفرش ولا يُلبس. وكذلك الاستبرق وهو الغليظ من الديباج. ومَن تخايل أنه في الجنة يلبس هذا الغَلَظ ويشرب الحليب والزنجبيل، صار كعروس الأكراد والنبط».

ووصف ابن الريوندي معجزات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد بقوله: إنها مخاريق، والذين جاؤوا بها سحرة ممخرقون. ولمزيد من مخالفة الإسلام كان يقول: إن فصاحة أكثم بن صيفي تفوق فصاحة القرآن. ويضيف: حتى لو سلمنا بأن معرفة النبي للغة العربية تفوق معرفة جميع العرب، فهل

تقوم دعوى الإعجاز البياني للقرآن حجة على من ليسوا بعرب؟ ثم يتهكم بالقول: «إن الملائكة الذين أنزلهم الله في يوم بدر لنصرة النبي محمد كانوا مفلولي الشوكة، قليلي البطشة على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلًا. ثم أين كانت الملائكة في يوم أُحد لما توارى النبي ما بين القتلى فزِعًا، وما باله لم ينصروه في ذلك اليوم؟».

أما أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، فقد كان منكرًا للنبوات، وله كتاب «**مخاريق الأنبياء**» ينفي فيه الوحي، ويقول في ذلك: «تعجبنا من قولهم في حكاية أساطير الأولين، [فالقرآن] مملوء من ذلك تناقضًا من غير أن تكون فيه فائدة أو بينة على شيء». ومع ذلك كان الرازي يؤمن بوجود «خالق حكيم». وفي عداد هؤلاء أبو يوسف يعقوب الكندي الذي يعبّر عن جوهر تفكيره قولُه التالي: «فإن ذكرتَ قصة عاد وثمود والناقة وأصحاب الفيل ونظائر هذه القصص قلنا لك هذه أخبار وخرافات عجائز الحي اللواتي دأبن على ذكرها ليل نهار»[١].

وكان النسطوري عبد المسيح بن إسحق الكندي الذي عاش في زمن المأمون يُسمي الإحرام والطواف «الحلق والتعري»، ويسخر من الحج ورمي الجمار والتلبية وتقبيل الركن والمقام، ويصف ذلك الأمر بأنه فعل «تستشنعه البهائم وتستقبح فعله». ولم يتورع عن وصف غزوات النبي

١- لنتذكر أن الحبيب بورقيبة، وهو أول رئيس لتونس المستقلة، وصف قصة أهل الكهف وحكاية عصا موسى بأنهما «حكايات خرافية» (راجع خطبته في ١٩/ ٣/ ١٩٧٤ المنشورة في جريدة «الصباح» يومي ٢٠ و٢١/ ٣/ ١٩٧٤).

بأنها غارات للسلب والنهب[٢]. ويقول في أحد نصوصه: «إن أهل النقص في الرأي الذين لا عقل لهم ولا معرفة عندهم، ولم يتخرجوا بمطالعة الكتب ومعرفة أصول الأخبار، هم همج كأجلاف الأعراب المعتادين أكل الضب والحرباء، وقد رُبّوا على الفقر والمسكنة وشقاء العيش في البوادي والبراري وهم في غاية الجوع والعطش والعري. فحيث لوّح لهم [النبي محمد] بذكر أنهار خمر ولبن وأنواع الفاكهة واللحم الكثير والأطعمة، والجلوس على الأسرّة والاتكاء على فُرُش السندس والحرير والاستبرق، ونكاح النساء اللواتي هنّ كاللؤلؤ المكنون، واستخدام الوصائف والوصفاء، والماء المعين المسكوب والظل الممدود التي هي صفات منازل الأكاسرة، وقع هذا في خلدهم، فاستطاروا فرحًا، وظنوا أنهم قد نالوه عند سماعهم إياه قولًا وظفروا به، فحملوا نفوسهم على محاربة أهل فارس لأخذ ذلك منهم»[٣].

كان المعتزلة يقولون إن وراء هذه الطبيعة المرئية خالقًا غير مرئي، وإن اللامرئي هو الحقيقة الثابتة، فيما المرئي هو الوهم. وفي الإمكان اكتشاف الحقيقة بالعقل، وحينئذٍ يصبح الدين بلا قيمة إذا تناقض مع العقل.

ويقول عبد القاهر البغدادي في كتاب **«الفَرْق بين الفِرق وبيان الفرقة الناجية»** إن إبراهيم بن سيار النظّام، شيخ المعتزلة، كان ينكر إعجاز القرآن ومعجزات النبي مثل شق القمر وتسبيح الحصى في يده ونبوع الماء من بين أصابعه، لكنه لم يجسر على إظهار مقالاته خوفًا من السيف، فاتبع التقية.

٢- راجع: عبد الرحمن بدوي، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ١١٢.

٣- عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، ص١١٣.

وهكذا، حاول المعتزلة عقلنة الدين، وما عاد الدين لديهم تعليمًا وقبولًا، بل صار تعليلًا وتساؤلًا، حتى الله لديهم بات مفهومًا عقليًا. وفي سياق انبثاق الأفكار، حتى في حقبة ما قبل الإسلام، ظهرت جماعة «الدهرية» التي يقول عنها الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» إن هؤلاء أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المُحيي والدهر المفني. وفي القرآن إشارة إلى هؤلاء في الآية التالية: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر﴾ (سورة الجاثية، الآية ٢٤). وخلاف هؤلاء ظهرت، فيما بعد، فرقة اللاأدرية، وهم من الشكاكين الذين قالوا بعجز العقل عن إقامة البرهان، نفيًا أو إثباتًا، في مسائل الله والخلق والغيب والقيامة.

والعجيب أن ابن خلدون الذي يتغنى العرب بعلمه التاريخي والاجتماعي، وبأنه مؤسس المدرسة الوضعية في علم الاجتماع كما تجلى في مقدمته المشهورة، له فصل في المقدمة إياها عنوانها «في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها»، أي إبطال العقل. لذلك ليس غريبًا أن ينتصر الحنابلة على المعتزلة في زمن الخليفة المتوكل، أي في عصر السلاجقة، وأن ينتصر الغزالي على ابن رشد، وأن ينتصر الفقهاء على الفلاسفة، وهو ما أدى إلى غرقنا في محيط من الجهل والجهلوت والجاهلين، ولا من منقذ أو معين، مع أن الشاعر الحكيم أبو العلاء المعري لم يكفّ، منذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، عن تنبيه الورى إلى ضلالاتهم وخطل معتقداتهم. ومن أقواله في هذا الشأن:

أفيقوا أفيقوا يا غواةُ فإنما ... ديانتكم مكر من القدماءِ
إنما هذه المذاهبُ أسبابٌ ... لجلبِ الدنيا إلى الرؤساءِ

* * *

إذا رجع اللبيبُ إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

* * *

ولا تحسب مقال الرُسلِ حقًا ولكنْ قولُ زورٍ سطّروهُ
وكان الناس في عيشٍ رغيدٍ فجاؤوا بالمحال فكدّروهُ

* * *

عجبتُ لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقرْ
وقول النصارى إلهٌ يُضامُ ويُظلم حيًا ولا ينتصرْ
وقول اليهود إلهٌ يحبُّ رشاش الدماء وريح القَتَرْ
وقوم أتوا من أقاصي البلادِ لرمي الجمار ولثم الحجرْ
فوا عجبًا من مقالاتهم أَيعمى عن الحق كل البشرْ

في سلسلة أعلام المفكرين العرب المنشقين عن التيار السُّني ابن سبعين الإشبيلي، واسمه عبد الحق بن إبراهيم بن محمد المولود في الأندلس في سنة ١٢١٧ ميلادية، وهو آخر فلاسفة الأندلس. وقد اتخذ اسم ابن سبعين في إشارة إلى الحديث النبوي «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة». وقد طلب منه السلطان الموحّدي عبد الواحد كتابة رد على أربعة أسئلة وجهها إليه ملك صقلية آنذاك، الإمبراطور فيما بعد، فريدريك الثاني عن الوجود الأزلي للعالم، وعن خلود النفس وطبيعتها، فكتب ابن سبعين الرد بعنوان «الأجوبة عن الأسئلة الصقلية». وبعد ذلك ارتحل نحو مكة، وراح يجاور في غار حراء مرتجيًا مجيء الوحي لأن النبوة لديه مكتسبة، وهي فيض من العقل إذا صفا. وكان يصف المسلمين الذين يطوفون بالكعبة بأنهم مثل حمير السواقي. وقد انتحر في مكة في ١٩/ ٥/ ١٢٧٠ بفصد شرايين يده. أما

أخوان الصفا (محمد بن معشر البستي وعلي بن هارون الزنجاني وزيد بن رفاعة وأبو أحمد المهرجاني وآخرون) فكانوا يقولون إن العالم هو السماوات والأرضون وما بينهما من الخلائق، وإن هذا العالم جسم واحد بجميع أفلاكه وأطباق سماواته، وإن له نفسًا واحدة سارية قواها في جميع أجزاء جسمها كسريان نفس الإنسان الواحد في جميع جسده، وهو ما يشبه عقائد مذهب «وحدة الوجود».

في عصرنا الحديث تطورت هذه الأفكار إلى الإلحاد Atheism الذي صار يعني غير ما كان يعنيه في العصور الماضية. فالإلحاد اليوم يعني نفي الله وإنكار الألوهة.

وقد كتب الكاتب المصري إسماعيل أدهم (مواليد الإسكندرية في سنة ١٩٠٥): «أن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته، وأن لا شيء وراء هذا العالم»[٤].

غير أن الإلحاد، بمعناه القديم، أي إنكار الوحي والمعجزات، أو بمعناه المعاصر، أي إنكار الخالق، قد حرر الإنسان من النبوة ومن الألوهة معًا. وفي هذا يقول الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي:

لما جهلتَ من الطبيعة أمرها وجعلتَ نفسك في مقام معلّلِ
أثبتَّ ربًا تبتغي حلًا به للمشكلات فكان أكبر مُشكلِ

٤- نشر إسماعيل أدهم في سنة ١٩٣٨ نصًا بعنوان «لماذا أنا ملحد؟»، فلم تقم القيامة عليه، بل ردّ عليه محمد فريد وجدي بكتاب عنوانه «لماذا أنا مؤمن؟». وقد انتحر إسماعيل أدهم بإغراق نفسه في البحر في سنة ١٩٤٠.

إن التشابه الشديد بين نقد روايات الكتاب المقدس في أوروبا في القرن السادس عشر فصاعدًا، ونقد الروايات الإسلامية وعقائد الإسلام في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، من دون أن يكون ثمة تواصل مباشر بين مفكري أوروبا في تلك الحقبة، ومفكري العالم الإسلامي (عدا الأندلس) يثير الدهشة حقًا.

لكن الأفكار العلمية والربوبية والتأليهية (والماسونية لاحقًا) مهدت لعصر الأنوار، فيما بدأ الفكر العربي انغلاقه مع أبو حامد الغزالي، أي في زمن السلاجقة، عندما اعتقد، واعتقد المسلمون معه، أنهم ختموا العلم، ووصلوا إلى ذروة المعرفة، وأن معارف الوجود محفوظة كلها في السِّيَر النبوية وكتب الأحاديث والتفاسير والروايات ونصوص الفقهاء وكلام المتكلمين.

والغزالي هذا وصفه ابن سبعين كالتالي: «لسان ذو بيان، وصوت من دون كلام. مرة صوفي، ومرة فيلسوف، ومرة أشعري، ومرة فقيه، ومرة محيّر، وإدراكه أضعف من خيط العنكبوت». وقد أجهض الفقهاء المسلمون الفكر العربي الفلسفي الذي أينع على أيدي فلاسفة متنورين أمثال الكندي والفارابي والرازي وابن سينا وابن رشد، وحتى ابن طفيل في كتابه «حي بن يقظان» وفلسفته الإشراقية عن التولُّد الذاتي. لكن الفقهاء راحوا يرمون بالزندقة كل مَن خالف مذاهب أهل السُنّة[٥].

٥- المعرفة في الإسلام ليست مستقلة عن الإيمان بل تابعة له ومنبثقة منه. فالإمام الشافعي يقول: كل متكلم من الكتاب والسُّنة فهو الحق، وما سواها هذيان. أما ابن تيمية فيقول: كل ما خالف الكتاب والسُّنة فهو باطل قطعًا.

وكلمة «الزندقة» أصلها فارسي (زنده كرداي)، أي إبطان الكفر وإظهار الإيمان، وهي بدأت بإرغام أتباع ماني على اعتناق الإسلام، ثم طاولت مفكرين وشعراء من عيار صالح بن عبد القدوس وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وعبد الكريم بن أبي العوجاء تلميذ الحسن البصري، وأبي عيسى الوراق (أستاذ ابن الريوندي) وأبي نواس وبشار بن برد وابن المقفع ومطيع بن إياس الكناني ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد الحارثي وحمّاد عجرد.

واشتُهر عن أبي نواس قوله في أبان بن عبد الحميد اللاحقي إنه كان حسّيًّا لا يؤمن إلا بما يراه، فلا يعتقد بالجن أو بالملائكة. وفي سياق آخر، لكنه موازٍ، قال نشوان الحميري، وهو فقيه ومؤرخ يميل إلى الاعتزال: «المالكية يستحلّون اللواط بالمماليك، والشافعية يجيزون القمار بالشطرنج، والحنفية يجيزون شرب الخمر إذا ذهب نصفها أو ثلثها، والشيعة يجيزون متعة النساء». ونسب نشوان الحميري إلى أبي العلاء المعري الأبيات التالية:

الشافعي من الأئمة واحدٌ ... ولديهم الشطرنج غير حرامِ
وأبو حنيفة قال وهو مصدّقٌ ... في ما يقره من الأحكامِ
شُرب المنصف والمثلث جائز ... فاشرب على أمنٍ من الآثامِ
وأجاز مالك الفقاح تطرفًا ... وهم دعائم قبة الإسلامِ
وأرى الروافض قد أجازوا متعة ... بالقول لا بالعقد والإبرامِ
فافسقْ ولُطْ واشرب وقامر ... واحتج في كل مسألة بقول إمامِ

X

الماسونية الحديثة

نشأت الماسونية، في بداياتها الأولى، في اسكتلندا، ثم تمددت إلى إنكلترا. والجماعات الماسونية الأولى، أي البناؤون، شرعوا في تنظيم شؤونهم ومصالحهم في حقبة مبكرة، ربما كانت إرهاصاتها المعروفة قد بدأت في سنة ٩٢٦ في إنكلترا حين وضعوا لائحة يورك، وهي نوع من دستور للبنائين. وفي سنة ١٣٥٠ أُجريت تعديلات على تلك اللائحة بطلب من ملك إنكلترا.

ومنذ ذلك الوقت راحت الماسونية تنتشر في أوروبا، لتزدهر، بقوة، بعد أكثر من مئة وخمسين سنة، أي في عام ١٥٣٥ فصاعدًا بعد الانشقاق اللوثري. وتلك كانت مرحلة الماسونية العملية التي لم تكن تقبل في صفوفها غير العاملين في مهنة البناء وحدهم. لكن، مع التحولات الكبرى التي عصفت بأوروبا، وأفول عصر الإقطاع العظيم، وانحسار بناء الكاتدرائيات والقصور والقلاع والحصون والجسور والمكتبات

ودور الأوبرا والمسارح وقاعات الموسيقى، تحولت الماسونية نفسها من الحقبة العملية إلى المرحلة الرمزية، أي صارت تقبل في صفوفها العاملين في مهنة البناء، وكل مَن يقبل رؤيتها الفلسفية، خصوصًا أن الماسونية راكمت طوال قرنين ونصف القرن منذ نشوئها، وقبل انتقالها إلى المرحلة الرمزية، مجموعة متحولة من العقائد والأفكار والرؤى السياسية.

ومهما يكن الأمر، فالماسونية الرمزية، أي الماسونية الحديثة، ظهرت على يدي جوزف لافي في ٢٤/ ٦/ ١٧١٧، ثم وضع دستورها جيمس أندرسون في ١٧/ ١/ ١٧٢٣، وكان أندرسون كاهنًا في الكنيسة المشيخية الاسكتلندية في لندن. وكانت الماسونية العملية آنذاك ذات ثلاث درجات: التلميذ (المتمرن) والرفيق (الصانع) والأستاذ، وصارت في مرحلة الماسونية الرمزية ٣٣ درجة.

والواضح أن التأسيس الفعلي للماسونية الحديثة في عام ١٧١٧ قد حدث مع بداية عصر الاستنارة الأوروبي، ثم شملت فرنسا في سنة ١٧٢٥، وإيطاليا وألمانيا وأميركا في عام ١٧٣٣.

وكانت البداية في عام ١٧٠٧ حين اجتمع محفل مار بولس في لندن، واتفق فيه ماسونيو ذلك المحفل على تغيير طريقة عمل الجمعية الماسونية من عملية إلى رمزية كي يتيسر لهم ضم غير البنائين إلى محافلهم. وفي ٢٤/ ٦/ ١٧١٧، في عيد القديس يوحنا، التقى الفيلسوف الطبيعي ثيوفيلوس ديزاغلييه وجورج باين عالم الآثار القديمة، وجيمس أندرسون وآخرون، وقرروا اتحاد أربعة محافل تحت اسم المحفل الأعظم Grand Lodge. وقد جرى الإعلان الرسمي عن تأسيس الماسونية

الحديثة في اجتماع موسع في حانة شجرة التفاح في لندن Apple Tree Tavern، وانتخبوا أنطوني ساير أستاذًا أعظم Grand Master.

أما المحافل الأربعة المتحدة فهي: محفل Goose and Grediron، ومحفل Crown، ومحفل Apple Tree Tavern، ومحفل Rummer and Grapes Tavern. وكان الفيلسوف الألماني لويس كلود دي سان مارتين، وهو من التيار التأليهي، هو مَن وضع شعار «الحرية والإخاء والمساواة» في سنة ١٧٥٠.

لم تقبل الماسونية في البداية اليهود والنساء في صفوفها. ففي أحد نصوص دستور أندرسون يرد النص التالي: «الذين في إمكانهم أن يصبحوا ماسونيين هم رجال خير مستقيمون، وُلدوا أحرارًا، وبالغون ناضجون، يتصفون بالرزانة، وليسوا عبيدًا أو نساءً، وليسوا رجالًا فاسقين أو من مرتكبي الفواحش، بل من ذوي السمعة الحسنة»[1].

ولم يصبح في إمكان النساء الانضمام إلى المحافل إلا في عام ١٨٩٣ حين أُسست «منظمة الحق الإنساني»، فكانت بذلك أول محفل أتاح للمرأة أن تكون على قدم المساواة مع الرجل في المحافل الماسونية. والذريعة التقليدية لعدم ضم المرأة إلى المحافل هي أن المرأة لم تكن بناءة في التاريخ الإنساني، وأن هذه المهنة اقتصرت دائمًا على الرجال. لكن، في العصر الحديث، صارت المرأة مهندسة تمامًا مثل الرجل، ومع ذلك لم تعترف المحافل

١- راجع: أندريه برات، **المنظمة الماسونية والحق الإنساني**، ترجمة جورجيت الحداد، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٨.

الماسونية بمحفل «الحق الإنساني» المختلط إلا في ١١/ ٥/ ١٩٠١. وأول محفل نسوي شرعي هو محفل «النجمة البيضاء» الذي أُسس في سنة ١٩٠٨.

أعلن الماسونيون في مؤتمر الماسونيين الأحرار في نابولي سنة ١٨٦٩ «حرية العقل ضد السلطة الدينية، واستقلال الإنسان في موقفه من استبداد الكنيسة والحكومة، واستقلال المدرسة الحرة [أي الماسونية] عن تعليم الكهنة»[٢]. غير أن محفل الشرق الأعظم في فرنسا رفض في عام ١٨٧٧ تبني فكرة الإيمان الربوبي حين عُرض هذا الاقتراح للمناقشة، وتُرك لكل عضو أن يقرر إيمانه أو عدمه.

وفي الوقت نفسه، كانت الماسونية الحديثة تتعرض لمقاومة شديدة في أوروبا، فالبابا كليمنت الثاني أصدر حرمًا في حق الماسونيين في ٢٨/ ٤/ ١٧٣٨.

وفي عام ١٨٦٤ أعلن البابا بيوس التاسع رسالته ضد الماسونية والمعروفة باسم Quanta Cura. وفي هنغاريا شنّ مكلوس هورتي حملة ضدهم في سنة ١٩١٩. وعندما أصبح وصيًّا على العرش، صادر جميع ما يملكون[٣].

وعمد بنيتو موسوليني في سنة ١٩٢٣ إلى طرد جميع الماسون الأعضاء في المجلس الأعلى للحزب الفاشي، ونظم عمليات عنف ضدهم، ثم حلّ محافلهم في سنة ١٩٢٦. وأغلق فرنسيسكو فرانكو المحفل الأكبر الماسوني في إسبانيا في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٨، واعتقل كثيرين منهم، وأعدم بعضهم.

٢- راجع: الأب لويس شيخو، **السر المصون في شيعة الفرمسون**، بيروت: دار الرائد اللبناني، طبعة مصورة عن النسخة التي نشرتها المطبعة الكاثوليكية في سنة ١٩٠١.

٣- راجع: **دستور أندرسون**، ترجمة جاك مبارك، بيروت: د.ن.، ١٩٨٨، ص ٢٨-٣٠.

والواضح أن علمانية الماسون كانت تثير غيظ الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية، وأن عداء الماسون للنظم الملكية والاستبدادية كان يستثير غضب السلطات الحاكمة كلها. فالماسونيون في التاريخ القريب هم الذين أوقدوا نيران الثورة الفرنسية، مع أن تلك الثورة عادت وقطعت رؤوس بعض قادتها ومناصريها بالمقصلة مثل دانتون، وكذلك ميرابو الذي يُعتقد أنه مات مسمومًا، وجان - بول مارا الذي اغتالته آن شارلوت كورديه دارمان بالخنجر.

وكانت الماسونية ثورية في البلدان التي فيها كنيسة قوية كالبلدان الكاثوليكية والأرثوذكسية. ففي روسيا مثلًا، كان معظم أعضاء ثورة الديسمبريين التي اندلعت في ١٤/ ٩/ ١٨٢٥ ماسونًا[٤]. وقد مُنعت الماسونية في روسيا بعد ثورة ١٩١٧.

أما في البلدان البروتستانتية فقد اتخذت الماسونية مواقف إصلاحية. وفي جميع الأحوال، بدأت الماسونية، قبيل الحرب العالمية الثانية، تفقد جاذبيتها وحضورها ودورها الثوري، ولا سيما بعد انتشار الأفكار الثورية الجديدة، وبالتحديد الماركسية.

وتحولت الماسونية شيئًا فشيئًا إلى منتديات اجتماعية، وظهر على هامشها ماسونيات مبتذلة ذات طابع استهلاكي تتلاءم مع عصر الاستهلاك والترفيه.

٤- انظر: عبد الوهاب المسيري، **الجمعيات السرية في العالم**، مصدر سابق، ص ١٠١.

ليس على الجاهل حرج

الماسونية ليست حزبًا سياسيًا، وليست حركة دينية في الوقت نفسه. وهي ليست واحدة موحدة، بل منظمات متعددة ومتجاورة ومتراكبة ومختلفة ومتصارعة أيضًا، من دون أن يكون بينها بالضرورة تفاعل دائم أو تمازج حقيقي، تمامًا كالأحزاب الشيوعية ذات المصدر الأيديولوجي الواحد، غير أنها أحزاب شتى ومتناقضة. فكان ثمة الاتجاه السوفياتي والاتجاهات الماوية والتروتسكية والشيوعية الأوروبية وجماعات العنف الثوري، وكذلك شيوعيات كثيرة سادت ثم بادت مثل شيوعية بول بوت في كمبوديا، وشيوعية كيم إيل سونغ الجارية في كوريا، علاوة على تجربة جوزف بروز تيتو في يوغوسلافيا، وفيديل كاسترو في كوبا وغيرها.

وعلى هذا المنوال هناك طرق ماسونية عدة كالاسكتلندية مثلًا، وهناك أكثر من سلطة ماسونية بحسب مراكزها الأصلية: فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وأميركا؛ فلا توجد سلطة ماسونية عالمية، أو أي هيئة أممية واحدة تضم جميع المحافل

الماسونية[1]. وكان بين المراكز الماسونية تنافس وصراعات تشبه إلى حد ما صراعات المبشرين البروتستانت والجزويت (اليسوعيين) في الدول المستعمَرة. والصراع بين المحافل الماسونية هو انعكاس للصراع بين المراكز الاستعمارية التقليدية.

وعلى العموم فإن الماسونيات خدمت دولها أكثر مما خدمت شعارها التاريخي: «حرية، إخاء، مساواة»؛ فالماسونية البريطانية خدمت الاستعمار البريطاني، وكذلك فعلت الماسونية الفرنسية والماسونية الأميركية. ومن علامات الجهل وعدم المعرفة استمرار القول إن الماسونية حركة واحدة في العالم كله.

فما هذه الماسونية التي يتحالف فيها الماسونيون الثلاثة (بحسب زعم الماسون) ستالين وروزفلت وتشرشل ضد الماسونيَّيْن هتلر وموسوليني، فيشعلون العالم حربًا مروعة، مع العلم أن موسوليني اضطهد الماسونية في إيطاليا؟

وما هي تلك الماسونية التي يعتقل فيها الماسوني المبتذل حسني الزعيم «أخاه» الماسوني السابق أنطون سعادة، وشتان ما بينهما، ويسلمه إلى ماسوني ثالث هو رياض الصلح ليحكم عليه مع شريكه الماسوني بشارة الخوري بالإعدام، وينفذانه في الليلة نفسها؟

وما هذه الماسونية التي ينقلب فيها الماسوني جمال عبد الناصر (دائمًا بحسب زعم الدعاية الماسونية، وهي هنا، في حالة جمال عبد الناصر، كاذبة) على الماسوني فاروق ويهدم عرشه؟

١- انظر: علي شلش، الماسونية في مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٥.

وما هذه الماسونية التي ينقلب فيها الماسونيان أديب الشيشكلي وسامي الحناوي على الماسونيَّين حسني الزعيم وحسني البرازي ويعدمانهما؟

وما تكون تلك الماسونية التي يغتال فيها الماسونيون جميل مردم وسعدالله الجابري ولطفي الحفار «أخاهم» الماسوني البارز عبد الرحمن الشهبندر؟

تمادى كثيرون في ترويج الجهل في شأن الماسونية، ومارسوا تضليلًا ما برح مستمرًا حتى اليوم.

وهذا التضليل لم يكن وليد خطة وتفكير عملي، أو أن له غايات فكرية وسياسية (نستثني الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية)، بل هو ناجم عن عدم المعرفة وقلة الدراية في المصاف الأول.

ومن بين مزاعم هؤلاء أن جمعية الصليب الوردي وأندية الليونز والروتاري هي من مخلوقات الماسونية، وهي تعمل كواجهات علنية لإخفاء ضروب من النشاط السري الماسوني. والمعروف أن أندية الروتاري ظهرت أول مرة في شيكاغو في ٢٣/ ٢/ ١٩٠٥، وأسسها المحامي الأميركي بول هاريس التي أرادها أندية للأغنياء ورجال الأعمال وذوي النفوذ، أي أندية ترعى مصالح المتنسبين إليها.

وعلى غرارها أسس الأميركي ملفن جونز في سانت أنطونيو بتكساس نادي الليونز في سنة ١٩١٥ ليكون ناديًا لرجال الأعمال.

والمعروف أن الماسونية حاربت الأندية الليونزية طويلًا. وقد تحدى المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري أي شخص أن يبرهن وجود أي علاقة بين

الروتاري والليونز والماسونية[2]. وللمسيري كتاب مهم يفند فيه الطريقة التآمرية في تفسير التاريخ، ويُسخّف بطريقة علمية الخرافات التي ما فتئت تتحدث عن «المخطط اليهودي للسيطرة على العالم» وعن «بروتوكولات حكماء صهيون» وعن الجريمة اليهودية المنظمة والانحلال الخلقي الذي يصدّره اليهود إلينا[3].

٢- راجع: عبد الوهاب المسيري، جريدة «الرأي العام» الكويتية، ١٠/ ٥/ ٢٠٠٤.

٣- راجع كتابه «البروتوكولات واليهودية والصهيونية»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣.

الماسونية في البلدان العربية

يعيد كثير من الدارسين النهضة العربية الحديثة إلى حملة نابليون بونابرت على مصر في سنة ١٧٩٨ التي أيقظت بمدافع بوارجها المشرق العربي الغافي والغارق في ركوده ورقاده.

وبما أن بونابرت كان ماسونيًا (ودائمًا بحسب أدبيات الماسونيين أنفسهم)، فقد ربط الباحثون المغرضون النهضة وحركات الإصلاح الحديثة بالفكر الماسوني، خصوصًا أن معظم أعلام النهضة في القرن التاسع عشر وفي بدايات القرن العشرين، وحتى النصف الثاني منه، كانوا ماسونيين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وبطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق ويعقوب صنّوع وعبد الرحمن الكواكبي وإبراهيم اليازجي ويعقوب صروف وجرجي زيدان، والشعراء خليل مطران وإبراهيم ناجي وأحمد زكي أبو شادي، وكذلك سعد زغلول، فضلًا عن الفنانين المشاهير من عيار يوسف وهبي ومحمود المليجي ومحسن سرحان وفريد شوقي وعبد السلام النابلسي وحسين رياض

وكمال الشناوي وأنور وجدي وسراج منير والمخرج حلمي رفلة. والماسونية في مصر ليست جمعية مصرية في الأصل، فقد أسسها أجانب وإن ضمت إليها بعض المصريين وبعض أبناء الأقليات كالمسيحيين الشوام واليهود.

والماسونية في مصر كانت مظلة حماية لأعضائها، وناديًا لتيسير العلاقات العامة وتسيير المصالح ولا سيما رعاية مصالح الأقليات ونُخبها الاقتصادية.

والمشهور الراجح أن الماسونية كانت تمنح عضوية الشرف لأشخاص مرموقين على طريقة منح الدكتوراه الفخرية. وكانت هذه الشخصيات في تلك الحقبة تقبل ذلك ولا تجد فيه أي غضاضة. وجراء ذلك اختلط هذا الأمر على الباحثين الذين اعتقدوا أن هؤلاء إنما هم ماسونيون مكرسون في المحافل. ولم تتورع المحافل الماسونية المختلفة في الترويج لنفسها، واستغلال أسماء الأعلام المشهورين في الدعاية لمحافلها ونشاطها، وزعمت أن جمال عبد الناصر ماسوني (وهو الذي أقفل المحافل المصرية العريقة)، وكذلك أنور السادات وعبد الحكيم عامر وصلاح سالم وعبد اللطيف البغدادي، وقبلهم الخديوي توفيق والخديوي إسماعيل والملك فاروق، ومعهم «إخوة» من «العشيرة الحرة» أمثال الملك حسين بن طلال والملك فيصل الأول وابنه الملك غازي ونوري السعيد وحتى الشيخ خزعل أمير المحمّرة، وبعض هؤلاء كانوا ماسونيين حقًا.

ومع أن الأمير عبد القادر الجزائري أصبح ماسونيًا مكرسًا في محفل الأهرام في الإسكندرية منذ سنة ١٨٤٥، وهو الذي أسس أول محفل في بلاد الشام (محفل سورية) في سنة ١٨٦٤ وكان تابعًا للشرق الإيطالي الأعظم، إلا أن الشوام ظلوا حتى الأمس يشتمون خصومهم بعبارة «يا ابن الفرمسوني». ولعل وقائع

التاريخ القريب تبرهن (خلافًا لجميع الهذيانات التي كانت تلوك الكلام على إمساك الماسون برقاب القادة العرب) أنْ لا دولة عربية واحدة كانت صديقة للماسون أو ساعدتهم في نشاطهم أو حمت سياساتهم. ولم تتمكن الماسونية في البلاد العربية من السيطرة على أي حكومة عربية.

وما حصل للماسونية في العالم العربي يبرهن أن الحديث عن قوتها الخفية وقدرتها العجيبة هراء بهراء؛ فقد مُنعت الماسونية في العراق في سنة ١٩٥٨، وفي مصر في سنة ١٩٦٤، وفي سورية في سنة ١٩٦٥، ومنع لبنان عقد المؤتمر الماسوني العالمي في آب/ أغسطس ١٩٦٥.

وبهذه الإجراءات التي لم يترتب عنها أي ردة فعل سلبية نامت الماسونية في المشرق العربي، وما عاد أحد يسمع بها، خلا بعض الاختلاجات هنا أو الإفاقة هناك. ومع ذلك فقد تجرأ أستاذ جامعي على القول في سنة ٢٠١٠ إن الماسونية تغزو فلسطين.

وها نحن بعد أكثر من عشر سنوات لم نعثر على خيلها أو إبلها أو رماحها، بل ألقينا القبض على أستاذ جامعي ثرثار.

وقد اشتهر من بين الماسونيين الفلسطينيين قبل النكبة أمين كامل قعوار ورجا العيسى وعيسى العيسى وسعيد الدجاني وخيري حماد ومنير فيضي العلمي وأحمد فيضي العلمي وأحمد طوقان وقدري طوقان ويوسف ضياء الخالدي ووهبة تماري وعمر البيطار وفهمي الحسيني ورشيد الحاج إبراهيم وألفرد روك ويعقوب فراج وتيوفيل بوتاجي ونظيف الخالدي وشحادة حنا دلّل وعزت السعيد وجمال العوري وسيف الدين الكيلاني وأحمد شاكر النابلسي

ومحمود عارف الأكحل وعارف النابلسي. ومن الصحافيين الماسون في فلسطين سليم قبعين الذي أصدر جريدة «الإخاء» في القاهرة، وكمال عباس ومحمود الكرمي[١] اللذان أصدرا مجلة «الشريعة» في عمان، ونجيب غرغور الذي أصدر في الإسكندرية جريدة «العالم الجديد» ومجلة «الآمال».

أُسس محفل إيزيس في القاهرة غداة احتلال نابليون بونابرت مصر في آب/ أغسطس ١٧٩٨، ثم توالى تأسيس المحافل، خصوصًا منذ سنة ١٨٣٠ فصاعدًا مثل محفل ممفيس.

والمحافل الماسونية في مصر كانت كلها أجنبية، لكنها ضمت كثيرًا من المواطنين المصريين. واشتُهر من بينهم إدريس راغب الذي صار رئيسًا للمحفل الوطني الأكبر في ٢٣/ ١/ ١٨٩١. وإدريس راغب هذا هو الذي اختار الأديبة مي زيادة لتُعلّمَ بناته الفرنسية، وهو الذي حوّل ملكية مجلة «المحروسة» إلى إلياس زيادة، والد مي، ليصدرها في سنة ١٩٠٩. ومن غير الواضح سبب ذلك العطف الخاص على والد مي زيادة.

ومن مشاهير الماسونية في مصر البرنس حليم ابن محمد علي باشا الذي أسس المجلس العالي الماسوني التركي في إسطمبول، وحفني ناصف والد ملك (باحثة البادية)، وعصام الدين الباحث اليساري المرموق، وولي الدين يكن وعدلي يكن وأحمد شوقي ومحمود سامي البارودي وعبد الرحمن الخميسي وأحمد ماهر والشيخ محمد أبو زهرة.

١- شقيق عبد الغني الكرمي وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى). وقد اغتيل في بيروت في نهاية عام ١٩٣٩ جراء اتهامه بالتخابر مع الوكالة اليهودية.

وشاع عن الشيخ أبو زهرة أنه كان يوصي ابنته الطالبة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بما يلي: «لا تكلمي الطالب، ولا تكلمي الطالبة التي تكلم الطالب»[٢]. ومن أبرز المجلات والصحف الماسونية في مصر: الأحرار (سليم وبشارة تقلا) والمقتطف (يعقوب صروف وفارس نمر) والمقطم (يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس) واللطائف (شاهين مكاريوس) والهلال (جرجي زيدان).

وفي بيروت كان للماسون جريدتا الأحرار (جبران تويني) والإنسانية (يوسف إبراهيم يزبك). وفي فلسطين صدرت مجلة السلام (نسيم ملول). وكتب في تلك الصحف والمجلات عدد من الكُتاب اليهود المعروفين أمثال سليم زكي كوهين وإسحق بنيامين يهودا وداود نحميا ومراد فرج وهلال فارحي وموريس فرجون علاوة على عشرات الكُتاب العرب المرموقين.

وانتشرت الماسونية في سورية انتشارًا كبيرًا بعدما أسس الأمير عبد القادر الجزائري أول محفل ماسوني في دمشق في عام ١٨٦٤.

ومن مشاهير الماسون في سورية أديب إسحق وتاج الدين الحسني (الشيخ تاج) وحسني البرازي وصبري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر ونسيب البكري وزيد الأطرش والشيخ مصطفى السباعي والمطران أثناسيوس كليلة وعزت العابد والشيخ محمد أبو الخير والخوري موسى الخوري ومحمد رائف المعري وتحسين العنبري ونصوح بابيل وفوزي الغزي وعفيف الصلح وعبد الرحمن الكيالي وسامي الحناوي ومحسن البرازي

٢- انظر: سليم الزعنون، السيرة والمسيرة، عمان: الأهلية للنشر، ٢٠١٣.

وسعيد حيدر واللواء جمال فيصل والأمير طراد الملحم ونجيب الريس ومحمد حافظ الجمالي وحقي العظم وعبد الرحمن اليوسف وجميل مردم بك وفوزي سلو وجميل الإلشي وعطا الأيوبي وحسن الحكيم وسعيد الغزي وصبحي بركات وعلم الدين القواص والداماد أحمد نامي ولطفي الحفار وبهيج الخطيب وبدر الدين الشلاح ورفيق الجلاد ومحمد سعيد الجزائري ورضا سعيد وحسني سبح ومدني الخيمي والشيخ طاهر الجزائري ومفتي دمشق محمود الخمراوي والشيخ محمود أبو الخير الدالاتي وصلاح البزري وحنين قطيني وشاكر الحنبلي ونظير زيتون وعادل أرسلان ويوسف الحكيم ووجيه الحفار وغيرهم كُثُر. وتوزع هؤلاء على محافل متباينة الأفكار والاتجاهات السياسية، وبعضها كان معاديًا للصهيونية بشكل جذري، أو كان على الأقل وطنيًا.

وعلى سبيل المثال، أمر فارس الخوري الماسوني جميع المحافل الماسونية في سنة ١٩٣٦ باعتماد النشيد الوطني السوري (حُماة الديار) نشيدًا لها، واعتماد العلم السوري بدلًا من العلم الفرنسي في جميع مقارها، ومنع الأجانب من الدخول إلى المحافل الدمشقية، أو الانضمام إليها، ومنع استعمال أي لغة غير العربية في المحافل السورية، فصارت الوثائق الماسونية تكتب بالعربية حصرًا، وراحت المحافل تلتزم التعطيل في عيد الاستقلال عن الدولة العثمانية (٨/ ٣/ ١٩٢٠)، ثم صار التعطيل في عيد الجلاء (١٧/ ٤/ ١٩٤٧) ملزمًا لجميع المحافل بعد سنة ١٩٤٦.

واشتجر الخلاف في سنة ١٩٢٥ بين نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» ومحفل قاسيون الماسوني الذي كان عضوًا فيه، فاستقال من

المحفل ومن الماسونية. والراجح أن الخلاف كان سببه الموقف من الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان الأطرش[٣].

وفي بيروت أُسس أول محفل ماسوني في سنة ١٨٦٢ برئاسة اليهودي موريس دانا، وكان من بين الماسونيين في فترات متعاقبة كل من حسين بيهم وجرجي سرسق وإبراهيم المنذر وفيلكس فارس ومحمد جميل بيهم وجبران تويني وجورج حنا وبشارة عبد الله الخوري (الأخطل الصغير) وحليم دمّوس (الداهشي) وخليل سعادة وجبر ضومط ونجيب عازوري وعبد الغني العريسي ومارون عبود وحنا أبي راشد ونقولا فياض ونعوم لبكي وأنيس الخوري المقدسي والأمير محمد أرسلان وخليل مطران وسامي الصلح ورشيد الصلح وجعفر شرف الدين وإيليا أبو ماضي وأحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني، ومنيرة الصلح زوجة وحيد الصلح ورئيسة محفل المرأة المثالية في سنة ١٩٥٤، ويُسر كاظم الصلح وسلمى ممدوح الصلح وعيسى إسكندر المعلوف وبشارة تقلا وشارل سعد وأنور الخطيب وبشير الأعور وجوزف سكاف وأديب الفرزلي وكاظم الخليل

٣- لمزيد من المعلومات يُراجع: سامي مروان مبيض، **شرق الجامع الأموي: الماسونية الدمشقية**، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٧.

ونجيب الريس (١٨٩٨- ١٩٥٢) هو صاحب قصيدة "يا ظلام السجن خيّم" التي كتبها بعدما اعتقله الفرنسيون في سنة ١٩٢٢ ونفوه إلى سجن جزيرة أرواد مع عبد الرحمن الشهبندر وسعيد حيدر وحسن الحكيم وآخرين. ويقول مطلع القصيدة التي وضع لها محمد فليفل لحناً مشهوراً:

يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجرُ مجدٍ يتسامى

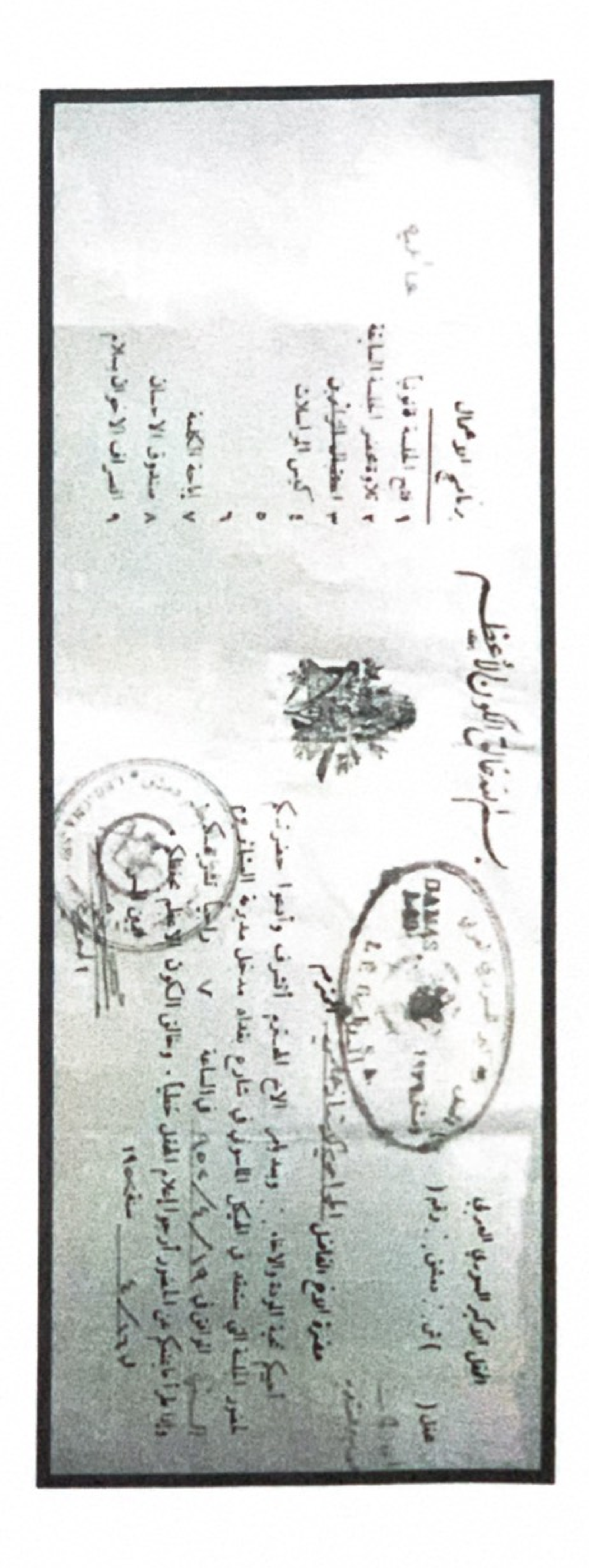
ووديع حنا. وقد ظهرت مجلة «البشير» في سنة ١٨٩٢ لغاية وحيدة هي مقاومة الماسونية والدفاع عن الكاثوليكية.

قصارى القول أن الماسونية في أوروبا كانت وارثة للفكر الربوبي والتأليهي الذي كان له الأثر الكبير في انبثاق عصر التنوير. أما في بلادنا، فلم يكن لها غير أثر بسيط لدى المفكرين المتنورين أمثال طاهر الجزائري وعبد الرحمن الشهبندر وجرجي زيدان ويعقوب صروف وفارس نمر وأمثالهم.

صور ماسونية



ماسونيون فرنسيون في إحدى التظاهرات



بسم الله خالق الكون الأعظم

المحفل الأكبر السوري العربي

محفل ( ) ش. دمشق. رقم (

حضرة الاخ الفاضل الحاجي كنان خاجيه المحترم

أحييكم بتحية الودة والاخاء. وبعد بامر الاخ المحترم أتشرف وأدعوا حضرتكم لحضور الحلقة التي ستعقد في الهيكل الماسوني في شارع بغداد مدخل مديرية المنافع العامة الموافق في ١٩٥٢/٤/١٩ في الساعة ٧ راجيا تشريفكم. وإذا طرأ مانعكم عن الحضور أرجوا إعلام المحفل خطياً. وخالق الكون الأعظم يحفظكم.

أمين السر

٤/٦ سنة ١٩٥٢

برنامج الاعمال

١ فتح الجلسة قانونياً
٢ تلاوة محضر الجلسة السابقة
٣ احتفال التكريس
٤ كيس المراسلات
٥
٦
٧ إباحة الكلمة
٨ صندوق الاحسان
٩ انصراف الاخوان بسلام



دفتر ضبط جلسات

محفل الأمير عبد القادر

رقم ممتاز ش.: دمشق

تحت رعاية

المحفل الأكبر السوري العربي

التحرير

مجموعة ابحاث اجتماعية
تصدر بعناية ابناء العشيرة الحرة

اشتراكها السنوي
٣٠ فرنك في سوريا ٥٠ بقية الاقطار

العدد الرابع (حمص . ص . ب ٩) السنة الثانية

فهرست العدد

الماسونية في سوريا

نهضة مباركة ، وخطوات جبارة ، يخطوها شباب الاحرار ، نحو توحيد صفوف الماسونية في سوريا ، ورص صفوفها وجمع كلمتها ؛ ذلك ما لمسناه باليد ورأيناه بالعين في اثناء رحلة دمشق وحلب .

واذا كان لم يتحقق كل ما نريده بالسرعة المرجوة فما ذلك الا بسعاية بعض من يخشون زوال سيطرتهم بزوال التفرقة ، ويخشون اذا توحدت الصفوف ، وعلا الحق والحقيقة هما معيار قوة الرجال ومقياس قدرهم ، ان يهملوا في احدى الزوايا ، وان يخسروا مكانة يتمتعون بها اليوم .

ان الحقيقة غالبة وان طال عهد الباطل .
وان الباطل زهوق وان بعد حين .

تحت رعاية المحفل الأكبر السوري العربي

محفل الحارث رقم ٢٤

سهر . الحجر

لمقام امانة السر العظمى العامة الموقرة

سلام :.

تحية اخوية :. وبعد اعرض لاخوتكم ان الاخ فاضل حوراني الحامل لدرجة الاستاذ من محفل الحارث سهر . الحجر هو من الاخوان المخلصين للعشيرة الحرة ، المتفانين في تطبيق مبادئها للذلك و احقاقاً للحق اتقدم بكتابي هذا لمقامكم الكريم راجياً زيادة اجوره تشجيعاً له و اعترافاً بجهوده و اعماله المبرورة

ومهندس الكون الاعظم يحفظكم

[redacted]

محترم محفل الحارث

خليل موسى جرجور

جرجور

VICTOR ABDALLA
SÃO PAULO

سان باولو - البرازيل ٢٨ [illegible]

حضرة الأخ .. القدير الجليل الأوفق الأمجد سمو الأمير سعيد الجزائري
الخطيب والمرشد الأعظم للمحفل الأكبر السوري العربي وجلسه السامي
- دمشق -

س .. س .. س ..

بينما كنت مترقباً بفروغ صبر ورود أجوبة الأخ .. الأستاذ [illegible]
الكاتب السر الأعظم سابقاً على كتابي الأخيرين، وإذ اطلعت صدفة بواسطة أحد الإخوان
على نسخة من بيانكم الكريم المؤرخ في ٥ مايس الماضي، وبه تعلنون قراركم السامي بفصل
الأخ .. [illegible] من كتابة السر الأعظم، وإحالته على اللجنة القضائية لتحقيق [illegible]
معه فيما نسب إليه "من أعمال خدشت الكرامة [illegible] والمحفل الأكبر [illegible]
[illegible]
كمحفلي نجمة سوريا وكوكب العرب في هذا الشرق .. والذين يغارون على سمعة العشيرة
لما نسب إلى عضو كبير في السلطة العليا في المحفل الأكبر السوري العربي الكريم والموقر، من أعمال
شائنة أساءت وخدشت الكرامة الماسونية في الوطن الحبيب.

وبما أنني بصفتي مندوب أعظم [illegible] في البرازيل، [illegible] بموجب قرار صادر عن الجلسة
المنعقدة [illegible] تحت رقم [illegible] من كتابة السر الأعظم تحت رقم [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

— ٢٠٩ — — ٣٣ —

بين الهياكل

حفلة تنصيب

محفل الانوار ش .·. حلب

اخطاب الشرق الاعظم السوري

بعد ظهر يوم الخميس في ٩ شباط ١٩٣٩ وصل الى حمص الوفد المنتدب من قبل الشرق الاعظم السوري لحضور حفلة تنصيب محفل الانوار ش .·. حلب .

كان الوفد مؤلفاً من الاخوان العظام . ذكي بك سكر ، الامير جعفر الحسني الجزائري ، الاساتذة كامل بك نصري ، وسليمان بك سعد ، وميشال بك حكلا ، وفؤاد بك الدردي .

وقد استقبلهم في حمص اخوانهم ابناء محفل النجاة ، واقيمت لحضراتهم مأدبة غداء في صالة الروضة . وبعد الانتهاء من الغداء انضم الى الوفد المشار اليه كل من الاخوان السادة نجيب احوش وادیب

محضر الجلسة الأولى ([illegible])

بسم الله خالق الكون الأعظم

عقد محفل الأمير عبد القادر جلسته الأولى منذ انعقاده الواقع في [illegible] والساعة التاسعة عشرة والنصف على
طلب المحترم الأخ [illegible] وجرت المباحثات والشؤون التالية:

١- شغل سدة الرئاسة الأخ عمر [illegible] محترم المحفل، وشغل منبر المنبه الأول الأخ عثمان الكيلاني، والمنبه
الثاني الأخ [illegible] الكيلاني، ومنبر أمانة السر الأخ [illegible]، ومنبر الخطابة الأخ [illegible]
ومنبر الخازن الأخ نعيم الدقر، وذلك بحضور طائفة من الإخوان في الدرجات الثلاث الأخرى.

٢- افتتح محترم المحفل الأخ عمر [illegible] الجلسة حسب الطقوس المعتادة، ثم ألقى [illegible] في ذلك [illegible]
الخاصة بالقواعد الأخلاقية، ومناصرة الفضيلة، وحث إخوانه على [illegible] ومطاردة [illegible]
بحالات [illegible] وأوضاع ومصادرها

٣- تلى المحترم كتاب مقام القطب الأعظم المحفل السامي الموقر والإخوان وقوف باحترام وهذا نصه:

الى الإخوان [illegible]، عمر [illegible]، عثمان الكيلاني، [illegible]، [illegible]
[illegible]، نعيم الدقر، [illegible] وتحية إليه وبقية الإخوان الأفاضل سلام.

تسلمت كتابكم [illegible] والمتضمن طلب السماح لكم بإقامة محفل جديد تحت [illegible]
محفل الأكبر السوري العربي [illegible] محفل الأمير عبد القادر [illegible]
السامي [illegible]
بعد ما اطلعوا على [illegible] العراق
السامي الذي يحوي نص البراءة وما تضمنته من الصلاحيات التي تخولكم العمل [illegible]
[illegible]
مواظب [illegible] والتوفيق [illegible]
[illegible]

التوقيع

الأمير محمد سعيد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري القطب [illegible]
الأعظم للمحفل الأكبر السوري العربي [illegible]

٤- صحة البراءة: [illegible] سلام.
في [illegible] تقدم الإخوان [illegible]، عمر [illegible]، [illegible]، عبد القادر [illegible]
إبراهيم [illegible]، يوسف [illegible]

مراجع الكتاب

- آتلخان، رفعت. **أسرار الماسونية** (ترجمه عن التركية نور الدين رضا الواعظ وسليمان القابلي)، كركوك: د.ن.، ١٣٧٦ هجرية الموافقة لسنة ١٩٥٦ ميلادية.
- أنطون، فرح. **ابن رشد وفلسفته**، بيروت: دار الفارابي: ٢٠٠٧.
- بدوي، عبد الرحمن. **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.
- برات، أندريه. **المنظمة الماسونية والحق الإنساني** (ترجمة جورجيت الحداد)، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٨.
- البستاني، سيف الدين. **حقيقة الماسونية وأهدافها**، دمشق: دار النهضة العربية، ١٩٥٩.
- بشارة، عزمي. **الدين والعلمانية في سياق تاريخي** (جزآن في ثلاثة مجلدات)، بيروت - الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣ و٢٠١٥.

- تاكسيل، ليو. **الحقائق السرية عن الجمعية الماسونية**، بيروت: بيسان للنشر، ٢٠٠٣.
- ديورانت، وِل. **قصة الحضارة**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨.
- راتييه، إيمانويل. **خفايا وأسرار منظمة بناي بريث** (ترجمة إحسان هندي)، بيروت: الذاكرة للنشر، ١٩٩٧.
- الزعنون، سليم. **السيرة والمسيرة**، عمان: الأهلية للنشر، ٢٠١٣.
- زيدان، جرجي. **تاريخ الماسونية العام**، القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣.
- سليمان، سهيل. **أثر البنائين الأحرار في الأدب اللبناني**، بيروت: دار نوفل، ١٩٩٣.
- شلش، علي. **اليهود والماسون في مصر**، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦.
- شيخو، لويس. **السر المصون في شيعة الفرماسون**، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٠.
- صفوة، نجدة فتحي. **الماسونية في الوطن العربي**، لندن: مركز الدراسات العربية، ١٩٨٠.
- العظمة، عزيز. **ابن الريوندي**، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٢.
- عوض، رمسيس. **الإلحاد في الغرب**، بيروت: دار الانتشار العربي، ١٩٩٧.
- فورد، هنري. **اليهودي العالمي** (تعريب خيري حماد)، بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٧.

- كوثراني، وجيه. **السلطة والمجتمع والعمل السياسي العربي في أواخر العهد العثماني**، بيروت-الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧.
- كوستون، هنري. **الماسونية دولة في الدولة**، بيروت: شركة المطبوعات، ١٩٩٨.
- مبيض، سامي مروان. **شرق الجامع الأموي: الماسونية الدمشقية**، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٧.
- المسيري، عبد الوهاب. **البروتوكولات واليهودية والصهيونية**، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣.
- ______. **الجمعيات السرية في العالم**، كتاب الهلال رقم ٥١٥، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٣.
- ______. **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة** (جزآن)، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢.
- ______. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** (ثمانية أجزاء)، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.
- مكاريوس، شاهين. **أربعة كتب في الماسونية**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٤.

- Gould, Robert and Freke, Robert, N.Y., Macoy Publishing. 1904.

مراجع ماسونية

- أحمد زكي أبو شادي، روح الماسونية، القاهرة: د.ن.، ١٩٢٦.
- إدريس راغب، الدرجة الأولى، القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٠٢.
- إيليا الحاج، تاريخ الماسونية العام، القاهرة: مطبعة الترقي، ١٩٠٠.
- جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام، القاهرة، مطبعة المحروسة، ١٨٨٩.
- حنا أبي راشد، دائرة المعارف الماسونية، بيروت: مكتبة الفكر العربي، ١٩٦١.
- حنين قطيني، البناية الحرة، بيروت: د.ن.، ١٩٥٥.
- شاهين مكاريوس، الكنز المصون في رموز ثلاث درجات الماسون، د.م.، د.ن.، د.ت.
- ــــــــ، الجوهر المصون في مشاهير الماسون، د.م.، د.ن.، ١٨٩٥.

- ________، الآداب الماسونية، القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٨٩٥.
- ________، الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية، القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٨٩٧.
- ________، فضائل الماسونية، القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٨٩٩.
- ________، الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية، القاهرة مطبعة التمدن، ١٩٠٠.
- ________، الدستور الماسوني العام للطريقة الأورشليمية، د.م.، د.ن.، د.ت.

المؤلف

- ولد في سنة ١٩٥٣، وحاز البكالوريوس في الاقتصاد سنة ١٩٧٦، ثم دبلوم الدراسات العليا في سنة ١٩٧٧.
- عمل باحثًا في مركز التخطيط في بيروت من سنة ١٩٧٧ حتى سنة ١٩٨٢، وتولى الإشراف في تلك الأثناء على الباب الثقافي في مجلة المصير الديمقراطي (١٩٨٠ - ١٩٨٢)، وأصبح سكرتيرًا للتحرير من سنة ١٩٨٤ حتى توقفها عن الصدور في سنة ١٩٨٥.
- عمل في الموسوعة الفلسطينية من ١٩٨٣ حتى ١٩٩٠، ومحررًا لـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية من ١٩٨٥ حتى ١٩٨٨. وكان يكتب في تلك الفترة في جريدة السفير.
- عمل محررًا لتراجم الأعلام في جريدة السفير عام ١٩٩٢.
- عُين مديراً لقسم النشر والتوزيع في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في سنة ١٩٩٤، وعضوًا في هيئة تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية في سنة ١٩٩٧، وسكرتيرًا لتحرير المجلة في عام ٢٠٠٥.

- عُين مسؤولاً عن ملحق فلسطين الذي صدر عن جريدة السفير منذ العدد الأو ل الذي صدر في سنة ٢٠١٠.
- ساهم في تأسيس المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في بيروت في سنة ٢٠١٠، وتولى موقع مدير التحرير ابتداءً من ٢٠١١.
- عضو مجلس إدارة مركز الأبحاث في فلسطين في سنة ٢٠١٦.

أبرز مؤلفاته

- الحركة الوطنية الفلسطينية: من الكفاح المسلح إلى دولة منزوعة السلاح (٢٠٠٣).
- الدين والدهماء والدم: العرب واستعصاء الحداثة (٢٠٠٧).
- أعيان الشام وإعاقة العلمانية في سورية (٢٠١٣).
- حوار بلا ضفاف مع صادق جلال العظم (١٩٩٨).
- حوار مع أدونيس: الطفولة، الشعر، المنفى (٢٠٠٠).
- حوار مع كريم مروة: كريم مروة يتذكر (٢٠٠٢).
- سورية: حطام المراكب المبعثرة - حوار مع نبيل الشويري (٢٠٠٧).
- أسرار خلف الأستار: حوار مع أنيس النقاش: (٢٠١٠).
- الهرطوقي الحكيم: حوار مع كمال الصليبي (٢٠١٢).
- في نفي المنفى: حوار مع عزمي بشارة (٢٠١٧).
- الجذور والتراب: حوار مع محمد أبو ميزر (٢٠٢٠).



صقر أبو فخر

الماسونية في عماء التاريخ

تكمن أهمية هذا الكتاب في ربط الماسونية بالفكر الربوبي الأوروبي وبالأفكار التأليهية التي مهدت الطريق أمام انبثاق عصر الأنوار. ويفند الكتاب الأغاليط التي شاعت في النصوص العربية عن الماسونية وتاريخها الملتبس، ويدحض، في الوقت نفسه، الرواية الماسونية التي تعيد بداياتها إلى نحو ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد، ويبرهن على أنها جمعية حرفية حديثة من بين الجمعيات التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى. ويعقد المؤلف مقارنة بين الجمعيات الحرفية الأوروبية والطوائف الحرفية العربية ثم يعقد مقارنة إضافية بين الملاحدة العرب وأفكارهم، وبين الربوبية الأوروبية، وذلك في سياق استقرائي نكتشف من خلاله الفروق بين الإلحاد العربي الذي كان ينكر النبوات ولا ينكر الخالق، والفكر الربوبي الأوروبي الذي لم ينكر الخالق، وإنما أنكر المعجزات الواردة في الكتاب المقدس.

غاية هذا الكتاب هي إيضاح ما استشكل في شأن الماسونية العربية التي لم يكن لها أي شأن سياسي مهم. والهدف، هو الدفاع عن العلم، ومحاولة إعادة التاريخ إلى نصابه الصحيح، وتقديم مساهمة نقدية في فهم دوافع كثير من الأعلام العرب ممن انتموا إلى الماسونية في بعض المراحل أمثال عبد القادر الجزائري والإمام محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ طاهر الجزائري وعبد الرحمن الشهبندر وغيرهم كثير جدًا.



